النشاط الاقتصادي والاجتماعي للجالية اليهودية في السودان (١٨٩٩- ١٩٥٦)

محمّد مصطفى النور
قسم التاريخ، جامعة البحر الأحمر

مقدمة

لا تلج هذاه الدراسة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي للجالية اليهودية في السودان مجالاً جديداً وحسب، وإنما هو مجال معقد في أحسن الأحوال، ولذا فإن الضرورة تقتضي تحديد منهجية واضحة للبحث، فالدراسة مع جدتها في تناول موضوع يتعلق بالجاليات الأجنبية، والتي لم تحظ باهتمام كبير من الباحثين، فإنه يدرس أيضـــاً جالية تختلف عن بقية الجاليات بكونها ذات عمق ديني اثني، مما يفرض على الباحث الإلمام بهذا البعد من حيث هو عقيدة وشـــرائع وتعاليم، ومن حيث هو بعد قومي/ عنصري/ ثقافي، ومن حيث هو دراسة لمجموعة من الأشخاص داخل مؤسسة تنظيمية أساس تكوينها العناصر السابقة في بلد غريب، ومن ثم توضيح حجم نشاط هذه المؤسسة وتأثيرها في ذلك البلد. بناء على كل ذلك نخوض غمار هذه الدراسة مســتندين على المنهج التاريخي التحليلي، فهذا البحث مع كونه بحثاً في التاريخ فهو دراســة معرفية تفســيرية لأن التاريخ ليس مجرد سرد سطحي للأحداث وإنما هو تفسير لها.

وعلى الرغم مما وفرته المصـــادر والوثائق والمذكرات الشـخصـية من معلومات تؤكد على النشـاط الكبير الذي لعبته الجاليات الأجنبية في تاريخ السودان الحديث وما كانت تتمتع به من نفوذ اقتصادي، إلا أننا نجد تجاهلاً واضحاً لهذا الدور إلا من إشارات مقتضبة، عرضية في أغلب الأحيان، ليس فيها ما يشبع الفضول المعرفي حول الموضوع. ولعل قلة الاهتمام بهذا النشـاط، رغم أهميته، وغياب الدراســات الأكاديمية الجادة القائمة على نهج علمي يجعل جُلَّ معرفتنا بتاريخ الســودان الحديث مضللة، أو قاصرة وغير دقيقة في أحسن الأحوال.

حول مفهوم اليهودية؟ ومن هو اليهودي؟

<u>اليهودية (الحقل اللغوي والأصل الدلالي)</u>: من المصطلحات التي تسبب اختلافا في دلالتها. يشير اليهود إلى عقيدتهم باسم التوراة (أي القانون، أو الشريعة). ظهر المصطلح للمرة الأولى في العصر الهيليني تمييزا بين عقائد وممارسات اليهود، والعبادات الموجودة في الشرق الأدنى.

أول من أشـــار إلى عقيدة اليهود باليهودية هو المؤرخ اليهودي المتأغرق يوســـيفوس فلافيوس، وذلك بالمقارنة مع "الهيلينية": عقيدة أهل مقاطعة يهودا مقابل عقيدة سكان مقاطعة هيلاس. فالمصطلحان بدءا اسمين جغرافيين قبل أن يشيرا إلى النسقين العقائديين.

يرى الدارسـون أن "اليهودية" كمصـطلح لا يشـير إلى النسـق الديني للعبرانيين قبل تدوين العهد القديم أثناء الهجرة الأولى إلى بابل ٥٧٨ ق.م.، أي بعد موسى بمئات السـنين، واسـتمر التدوين حتى القرن الثاني قبل الميلاد، في وقت أصـبحت فيه العبرية لغة ميتة لا تستخدم إلا في الطقوس الدينية، بينما أصبحت الآرامية لغة اليهود. لذا، قد يكون من الأفضل الحديث عن "عبادة يسـرائيل" في المرحلة السـديمية التي تسـبق بناء الهيكل وتأسـيس المملكة العبرانية المتحدة عام ١٠٢٠ ق.م.، وعن "العبادة القربانية المركزية" بعد تأسيس الهيكل وحتى هدمه عام ٧٠ ميلادية، واليهودية بشكل عام لما بعد ذلك.

اليهودية (خصـائص النسق الديني): نظرا لظهورها المبكر، ولتمثلها عناصـر من الحضـارات في فلكها، تتسم اليهودية بتجانس أقل مما هو في حالة الديانات التوحيدية الأخرى، خاصـة بعد سـقوط الهيكل، واختفاء أي مركز ديني أو زمني لليهودية (أو اليهود)، وأصـــبحت اليهودية تركيباً تراكمياً لطبقات عدة الواحدة فوق الأخرى. أول من أشـــار لهذه الظاهرة بين الباحثين العرب هو الدكتور عبد الوهاب المسـيري في موسـوعته اليهود و اليهودية والصـهيونية سـاردا عدة أسـباب أدت لتحول الديانة اليهودية لهذا المركب الجيولوجي التراكمي : أهمها عدم تدوين العهد القديم إلا بعد نزوله بفترة طويلة فإذا كان عام ١٢٠٠ ق.م هو العام المعتمد من قبل علماء اليهود للخروج فإن كتابة التوراة لم تتم إلا بعد مئات السنين و لم تعتمد النسخة القانونية منه إلا بعد ظهور يسوع المسيح ، يضاف لذلك كون بني إسرائيل شعباً بدوياً متنقلاً احتك بالعديد من الحضارات الأخرى مثل الحضارة الفرعونية و فكرة التوحيد عند إخناتون، والحضارة الفارسية في شرقي بلاد الرافدين . سبب آخر أن اليهودية لم تستطع أن تشكل سـلطة مركزية تحدد جوهر الدين و منطلقاته وترفض ما هو خارج عن أسـســه و منذ البدايات انقسـمت المملكة العبرانية و انقسمت المراكز الدينية فتأسس مركز في بيت إيل من ثم تأسس مركز ديني في بابل يتحدث بالآرامية و ليس العبرية ثم مركز في مصـر يتحدث باليونانية. وبالمقارنة مع العقائد الأخرى، تتسم التقاليد الشفوية اليهودية بسلطة تجعلها "شريعة شفوية" تفوق "الشـريعة المكتوبة"، أي التوراة، أهمية. و الشـريعة الشـفوية هي مجموع تفسـيرات حاخامات اليهود و فقهائهم لمجمل الشـريعة المذكورة في التوراة . جمعت هذه التعليمات لاحقا في كتاب دعى باســم التلمود. كل هذه المكونات المختلفة للتركيب اليهودي جعلت العهد القديم أو مليئاً بالعبارات والمفاهيم المتناقضة.

سفارد: هو مصطلح مأخوذ من الأصل العبري " سفارديم". وقد استخدم ابتداء من القرن الثامن الميلادي للإشارة إلى أسبانيا، ويستخدم في الوقت الراهن للإشارة إلى اليهود الذين عاشوا أصـلاً في أسبانيا والبرتقال ثم انتشروا، فيما بعد، في بلدان العالم الإسلامي وبخاصـة سالونيكا التركية حتى أصبح المصطلح يعني "اليهود الشرقيين" أو "يهود العالم الإسلامي" في مقابل "اليهود الغربيين".

أشـكناز: تختلف المصــادر الدينية والتاريخية واللغوية في تحديد أصــل كلمة "أشـكناز" ومعناها، إلا أنها تعني في الاستخدام الحالي "اليهود الغربيون" وبخاصة ذوي الأصول الفرنسية والألمانية والبولندية.

ومن الناحية الثقافية تختلف لغة السفارد العبرية عن عبرية الأشكناز وذلك لأنهم يستخدمون اللغة العربية في اقتصـر استخدامهم للغة العبرية في الكتابات الدينية المتخصـصـة. ومن ناحية العقيدة، ورغم اتفاق السفارد والأشكناز في جوهر العقيدة والعبادات، فقد ظهرت اختلافات في بعض المظاهر والمصطلحات. وهكذا فقد اكتسب مصطلحي سفارد وأشكناز دلالات دينية

إضافة لدلالته الاثنية. وقد عرف السودان اليهود "السفارد" واليهود "الأشكناز" إلا أن الحساسية بينهم في السودان لم تكن على حالها إذ أن معظم اليهود الأشكناز استجابوا لعادات وتقاليد السفارد كما سنرى.

اليهود المتخفون: وهم اليهود الذين يتظاهرون باعتناق دين آخر غير اليهودية بسبب الظروف المختلفة، ويظلون على دينهم في الواقع. وقد لاحظ بعض الدارسين أن هذه الظاهرة لم تظهر إلا داخل التشكيل الحضاري الإسلامي بسبب اختلاط اليهود السفارد بالمسلمين وقد أخذوا عن المسلمين مبدأ "التقية". ويشار لليهود المتخفين في العبرية باسم "أونسيم" وهي كلمة عبرية تعني المكرهين. ومن اليهود المتخفين يهود المارانو في أسبانيا ويهود الدونمة في تركيا. ويفترض البحث أن عدداً من الموظفين الأتراك في السودان الذين يعودون لأصول يهودية هم في الواقع يهود متخفون.

الولاء اليهودي المزدوج: هو مصطلح يستخدمه المعادون لليهود انطلاقاً من الإيمان بأن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لوطنهم القومي ومصالحهم اليهودية لأنهم لا جذور لهم في مجتمعاتهم ولا ينتمون لها انتماءً حقيقياً. وهو مفهوم ليس صحيحاً بالضرورة، ويناقش البحث صحته من عدمها فيما يتعلق بحالة يهود السودان.

من هو اليهودي؟ يلاحظ الباحث عدم وجود معيار متفق عليه بين اليهود أنفسهم حول أساس الانتماء اليهودي، وهل هو ديني أم قومي أم ديني/ قومي؟ حتى أن البعض ذهب إلى معيار خارجي تماماً عندما قال أن اليهودي هو من يعتبره الآخرون كذلك! كما أن الهويات اليهودية المتعددة تم تشكيلها في غياب سلطة مركزية دينية أو دنيوية، وعبر الاحتكاك مع عشرات الخبرات التاريخية والحضارية وهو ما نتج عنه تنوع كبير بين الجماعات اليهودية.

ولا يعني هذا أن ننفي أهمية المشترك الديني، بل لعله أهم مكونات الهوية اليهودية، لكنه لا يحدد بشكل قاطع من هو اليهودي.

كما نلاحظ غياب النظرة الموضوعية للإجابة على هذا السؤال، فالفكر اليهودي والفكر المعادي لليهود على حد سواء يستعجلون إيجاد الرابط للتنويعات اليهودية في "شعب يهودي" مما يمكنهم من إطلاق الأوصاف، إيجابية أو سلبية، لخدمة أغراضهم الأيديولوجية.

وعلى كل حال فمن بين كل العناصر المحددة للهوية تركز هذه الدراسة على سمتين أساسيتين لتحديد هوية اليهودي، وليس بالضرورة أن تتوفرا معاً في "اليهودي" إذ يكتفي البحث بوجود سمة واحدة كمعيار للهوية اليهودية، وهاتين السمتان هما:

أولاً: الدين اليهودي: بمعنى أن يدين الفرد باليهودية، وهي أهم عناصر تحديدنا للهوية اليهودية. واليهودية عقيدة وشرائع وتقاليد، ولما كانت تدخل في كافة أوجه حياة اليهودي من الاستحمام وارتداء الملابس وألوانها، والمعاملات الاجتماعية، إلى الصلوات الدينية وحتى رؤية اليهودي لنفسه وللعالم من حوله وتصوره المسبق لمآلات التاريخ، لكل ذلك فإن العامل الديني يشكل أساس الثقافة اليهودية، ومن ثم فإن بعض "غير اليهود" ممن غيروا ديانتهم اليهودية هم يهود بالتقاليد والثقافة.

ثانياً: العرق اليهودي: نقاء اليهود عرقياً عبارة تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية حافظوا عبر التاريخ وفي كل زمان ومكان على نقائهم العرقي ولم يختلطوا بالأجناس والشعوب الأخرى. وهذه فكرة غير موضوعية يروج لها المفكرون اليهود لإيجاد موطئ قدم كشعب قومي ولابد له من وطن قومي؛ كما يتبناها في نفس الوقت المعادون لليهود ليتخذونها سبباً لعزل اليهود ورميهم بأبشع الصفات. وبطبيعة الحال فإننا لا يتبنى هذه الفكرة بل ونلاحظ أنه حتى التشريعات اليهودية التي تحرم

الزواج المختلط لم تمنع اليهود من التزاوج مع غيرهم من الشعوب، وسنناقش هذه المسألة في معرض حديثنا عن النشاط الاجتماعي للجالية اليهودية في السودان. وعليه فإننا نعني بـ"العرق اليهودي" هنا تحدر الأفراد، الذين قد لا يدينون باليهودية، من أسر يهودية. فاليهودية كما ذكرنا من قبل ثقافة وتربية وأيديولوجيا. وسنلاحظ أن بعض المتحدرين من أسر يهودية، رغم عدم يهوديتهم، فهم يبرزون تعاطفاً خاصاً تجاه الجالية اليهودية في السودان، وفي نفس الوقت يبرزون مشاعر عدائية تجاه المسلمين والعرب في السودان.

تأريخ النتائج:

أمامنا نتيجة أساسية هنا هي بداية خروج اليهود من السودان منذ النصف الأول من القرن العشرين وحتى سبعينياته في هجرات متتالية نتيجة للاضطهاد وسوء المعاملة وغياب الحماية الدستورية لحقوق المواطنة بل وإرهاب الدولة نفسها في بعض هذه الفترات ومصادرة الممتلكات ورؤوس الأموال.

إن منهج تأريخ النتائج ينطلق من فرضية أن الأحداث ما هي إلا نتائج مقدماتها، وبناء عليه، ولتأريخ هذه النتائج لابد من الاجابة على أسئلة: وهل عرف اليهود السودان؟ وهل دخلوا إليه؟ ومتى كان ذلك؟ وهل كانوا مواطنين سودانيين؟ ولماذا استقروا في السودان طوال هذه الفترة؟ وما هو المستجد الذي أدى للتسبب في خروجهم؟

وبطبيعة الحال فلا يمكن الإجابة على هذه التساؤلات إلا بوضعها في سياقها التاريخي، وهو ما سيمثل التقسيم الذي نتتبع عبره تأريخ النتيجة في هذه المحاضرة: ٢. **التواصل المبكر بين اليهود والسودان** (القرن الأول وما قبله، العصور الوسطى، عصر الفونج، العهد التركي المصري، الدولة المهدية)؛ ٣. **تدفق اليهود للسودان في عهد الحكم الثنائي وتأسيس الجالية اليهودية في السودان**،٤. **النشاط الاجتماعي للجالية اليهودية والتماهي في اذات السودانية**؛ ٥.**نشوء الأيديولوجيات المتضادة** (الصهيونية في مقابل العروبية)، ٦. **تدهور أوضاع الجالية اليهودية والخروج من السودان**، ٧. **صورة اليهودي في الذهن السوداني** (بمثابة خاتمة). ولكن من المهم أن تكون بداية محاضرتنا **بـ ١.وصف واستعراض المصادر والمراجع** التي اعتمدنا عليها والتي ستكون مفيدة لمن أراد الاستزادة حول الموضوع.

1. **وصف واستعراض المصادر والمراجع:**

أولاً المصادر الأولية

1. **الكتب السماوية والموسوعات:** وتشمل العهدين **القديم** و**الجديد** و**القرآن الكريم**، و**الموسوعة الفلسطينية** و**الموسوعة البريطانية** و**الموسوعة الإسلامية** و**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية** و**موسوعة الأديان والمعتقدات**. وتشكل هذه المصادر المادة النظرية الأساسية لهذه الدراسة: من هو اليهودي؟ الهوية اليهودية، الديانة اليهودية، الجماعات اليهودية وأقسامها وشرائعها. ويمثل العهدان **القديم** و**الجديد** معيناً لمعرفة التواصل بين اليهود وسودان وادي النيل. ويفيد **القرآن الكريم** في باعتباره واحد من المدخلات الأساسية لصورة اليهودي في الذهن السوداني.

2. **الوثائق**: (دار الوثائق القومية بالخرطوم)، وأهمها:

أ. ملف **الجالية اليهودية في السودان** *Jewish Community of the Sudan* ويأخذ الرقم ١٠/ ١/ ٦ من مجموعة السكرتير الإداري، ويحتوي هذا الملف على سبع صفحات فقط هي عبارة عن مخاطبات، تدور في معظمها حول تأسيس نادي للجالية اليهودية في السودان ممهورة بتواقيع كل من مجلس الجالية اليهودية في السودان، والسكرتير الإداري، ومدير عام أراضي الخرطوم، والسكرتير المالي.

ب. ملف **الجالية السورية في السودان** *Syrian Community of the Sudan* ويأخذ هذا الملف رقم ١٠/ ١/ ٥ من مجموعة السكرتير الإداري، ويحتوي هذا الملف على ١٤ صفحة تشتمل على مخاطبات بين السكرتير الإداري وحاكم كردفان يتساءل فيها الأخير عن عضوية بعض التجار الشوام بجسم الجالية بالخرطوم. ومخاطبات بين السكرتير الإداري والجالية السورية في مدني تحتوي على تفاصيل خلاف بين أعضاء الجالية حول المجلس التنفيذي للجالية، كما تفيد بإجراء انتخابات الجالية، وكشف بالأعضاء الملتحقين بالجالية السورية في الخرطوم. وقد اعتمد الباحث على بعض مما جاء في هذا الملف مما يفيد بيهودية بعض أفراد الجالية السورية، كما أن بعض ممن ترد أسماؤهم في هذا الملف قد ورد ذكرهم في مصادر أخرى على أنهم يهود.

ج. **مجموعة مكتب الأمن العام** *Public Securty office*، وهذا ملف كبير متصل، غير مقسم لوحدات مثل مجموعة السكرتير الإداري، يحتوي على نحو من ٧٥ صفحة ويتناول في مجمله على قضية واحدة هي قضية مهاجرين يهود على الحدود السودانية عام ١٩٣٨، ويشتمل هذا الملف على مخاطبات، بعضها له طابع سري، بين مكتب الأمن العام و: السكرتير الإداري، مدير جوازات حلفا، مدير الجوازات في مصر، الحاكم العام، وزارة الخارجية البريطانية. كما يحتوي الملف على قصاصات من الصحف البريطانية التي تناولت القضية وتعليق مكتب مدير الأمن العام عليها. ويبدو واضحاً أن جهة ما ترسل هذه القصاصات لمكتب الأمن العام وتسأله إذا كانت تستحق الرد عليها؟ وكيف يكون الرد عليها. كما يحتوي هذا الملف على أسماء المهاجرين اليهود وأعمارهم والجهات التي قدموا منها. ولعل هذا الملف كان ليعطينا صورة طيبة عن أحوال السودان إبَّان الأزمة المالية العالمية وبعدها وأسباب توافد المهاجرين اليهود وغيره، إلا أن الإجراءات المشددة بدار الوثائق القومية حرمتني من الاستفادة الكاملة من هذا الملف وسمحت لي بالإطلاع عليه ليوم واحد فقط، كما لم تسمح لي بتصويره.

هذه الوثائق في جملتها كانت معيناً جيداً للبحث، بل شكلت لحمته وسداه، وحددت مساره وخطاه، وصاغت فرضياته الأساسية، كما مثلت ثقلاً مهماً في ميزان تقييمنا للوقائع الواردة في بقية المصادر.

3. **كتـب المـذكرات** *Memoirs*[*]: على الرغم من وقوعها في مزالق الانحياز والنظرة الذاتية للأحداث، إلا أن كتب المذكرات والسير تظل مصدراً أولياً في الكثير من الأحيان وتزودنا بتقارير أولية مباشرة. وتتفاوت أهمية المعلومات التي قدمتها هذه المذكرات من كتاب إلى آخر إلا أنها تشترك جميعاً في أنها كتبت من إدراك واقعي ومعايشة فعلية لوقائع في تاريخ السودان الحديث. وكان من مهمة الباحث أن يضع هذه المعلومات والمشاهدات في موقعها من الإطار الموضوعي العام للتاريخ حتى يخرج منها بنتائج تفيد موضوع البحث. ومن أهم هذه الكتب مذكرات سلاطين باشا **السيف والنار**، ومذكرات الأب أورفالدر **عشر سنوات في سجن المهدي**، ومذكرات إبراهيم فوزي **السودان بين يدي غردون وكتشنر**، و**مذكرات يوسف ميخائيل**، والجزئين الأول والثاني من **مذكرات بابكر بدري**، ومذكرات إلياهو سولومون ملكا *Jacob`s Children in the Land of the Mahdi: Jews of the Sudan* والترجمة التفسيرية التي قام بها مكي أبو قرجة لمذكرات إلياهو سولومون ملكا بعنوان **اليهود في السودان: أبناء يعقوب في بقعة المهدي**. وأهم هذه المذكرات على الإطلاق هو كتاب:

- Eli S. Malka, *Jacob`s Children in the Land of the Mahdi: Jews of the Sudan*, Syracuse University Press, 6th edition, New York, 2002.

(باللغة الإنجليزية)، ويقع الكتاب في حوالي ٢٦٠ صفحة من القطع المتوسط، نشرت طبعته الأولى عام ١٩٩٧، ونسبة لجدة موضوعه وتفرده فقد حقق قبولاً كبيراً فتوالت طبعاته بمعدل طبعة سنوياً، وبحلول عام ٢٠٠٢ نشرت الطبعة السادسة منه. كما صممت له صفحة على الإنترنت لإدارة الحوارات والنقاشات حوله كجزء من ترويج الكتاب وتسويقه.

أهم ما يميز هذا الكتاب أن مؤلفه، إلياهو سولومون ملكا، هو الإبن الكبر لأول حاخام للجالية اليهودية في السودان. كما أن المؤلف شغل العديد من الوظائف الحكومية والخاصة المؤثرة في السودان، كما كان للمؤلف أدوار نشطة وسط الجالية اليهودية في السودان، وهو من المؤسسين للنادي اليهودي، ومن لاعبي فريق مكابي لكرة القدم، كما حظي، كابن للحاخام، بلقاء قادة الحركة الصهيونية في العالم ممن زاروا السودان.

بهذا الحضور الكثيف يأتي كتاب ملكا كسيرة يوثق فيها لحياته وحياة والده ولبعض الأسر اليهودية المؤثرة، ويتتبع مصائرها بعد خروجها من السودان.

قسم المؤلف كتابه إلى قسمين: **الأول** عن "المجتمع اليهودي في السودان" وتعرض فيه ليهود المهدية، وعائلة بن زيون كوشتي على وجه الخصوص، وأوائل الأسر اليهودية التي اختارت السودان مقاماً لها. كما تعرض في هذا الجزء لقدوم الحاخام سولومون ملكا وتأسيس مجلس الجالية اليهودية في السودان، وإنشاء المعبد اليهودي، وتنامي عدد أعضاء الجالية، وتأسيس النادي اليهودي، وزيارات قادة الحركة الصهيونية للسودان، والتواصل بين يهود السودان ويهود مصر وأثيوبيا وأريتريا واليمن، وتأسيس منظمة بناي بيرث في السودان، ومصر، وبريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة الأمريكية. ويتناول المؤلف في هذا

---

[*] واحدة من فضائل المشرف على هذه الدراسة أنه نبَّهني إلى أهمية كتب السيرة والمذكرات الشخصية في هذه الدراسة، بل ووفر لي معظم هذه الكتب، والحق أني أفدت منها فائدة كبيرة.

الجزء أيضاً موقف اليهود من الاستقلال، كما يتتبع سياسات الحكومات الوطنية في السودان من منظوره الشخصي حتى عام ١٩٩٧.

أما القسم **الثاني** فتناول فيه طفولته في السودان، ونمو نشاطه التجاري، ورحلاته من السودان إلى الدول المجاورة، وإلى غزة، وزواجه، وعائلته، وأطفاله، وحياته في الخرطوم القديم، وحياته في فرنسا والولايات المتحدة. وينتهي الكتاب بفهرست جيد مع ملحق بالوثائق المهمة والأوراق التي كتبها والده بخط يده.

وعلى الرغم مما يحتويه الكتاب من معلومات قيمة، خصوصاً القسم الأول منه، إلا أنه يتناول الجالية اليهودية من منظوره الشخصي، فيصر على تبيين دوره وأهميته، ودور والده في تنظيم الجالية، ويورد الوقائع دون تحليل للدوافع أو متابعة للنتائج. وقد تعاملنا مع هذا الكتاب، وصنفناه، على أنه أحد كتب السيرة تحوطاً من الوقوع في فخ المعلومات المضللة. أما الكتاب الثاني فهو:

- مكي أبو قرجة، **اليهود في السودان: قراءة في كتاب إلياهو سولومون ملكا أطفال يعقوب في بقعة المهدي**، مركز عبد الكريم ميرغني، الطبعة الثانية، الخرطوم، ٢٠٠٧.

(باللغة العربية)، يقع الكتاب في حوالي ١٥٢ صفحة من القطع المتوسط. وهو ترجمة تفسيرية لكتاب ملكا. وأهم ما يميز الكتاب المقدمة الممتازة التي صال فيها المؤلف وجال مستعرضاً معرفته الواسعة بالجالية اليهودية في السودان والتي استقاها من عدة مصادر بخلاف كتاب سولومون ملكا.

4. **الإفادات الشفوية:** رغم التحفظات التي يبديها بعض المؤرخين حول التاريخ الشفوي، إلا أن الشواهد الشفوية بعد نقدها وتمحيصها يمكن أن تشكل رافداً مهماً للدراسة التاريخية، وفي حالة بحثنا هذا فإن للمصادر الشفوية وزناً خاصاً نسبة لشح المصادر المكتوبة التي تناولت الموضوع. وقد قمت بجمع الإفادات الشفوية من مدن: الأبيض، مروي، الخرطوم، الخرطوم بحري، أم درمان. وقد شملت عينة الإخباريين أفراداً ينحدرون من أسر يهودية، وأفراد عايشوا الأسر اليهودية، وأفراد ذوي معرفة بنشاط اليهود في السودان، وجُلّ الفئة الأخيرة من الأكاديميين. وقد جمعت هذه الإفادات بمساعدة بعض الزملاء والأساتذة، وقمت بتدوين الإفادات كتابة.

ثانياً: المصادر الثانوية

1. **الكتب.**
2. **البحوث الجامعية.**
3. **الدوريات.**

وقد غطت هذه النوعية من المصادر خمسة محاور أساسية في البحث، هي:

1. **المحور النظري:** وهو محور متعلق بطبيعة الجماعات اليهودية، وتكوينها التاريخي، وسماتها الاقتصادية، وشتاتها، وأوضاعها بعد الشتات. وساعدت هذه الكتب في الإلمام بالعنصر البشري في هذا البحث. ولا بد من الإشارة هنا إلى إسهامات الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي جعل موضوع هذا المحور مشروعه الفكري وانكب عليه، وأنتج حوله عشرات البحوث والكتب. وقد قرأ الباحث جُلَّ ما كتبه المسيري حول الموضوع، وإن اختلفنا معه في بعض أطروحاته إلا أنه يظل واحداً من الأعمدة الأساسية التي يرتكز عليها هذا البحث. ومن أهم كتب المسيري في هذا المحور:

- عبد الوهاب المسيري، **نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني**، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، ١٩٧٣، (د. ط). (باللغة العربية) حوالي ١٢٨ صفحة من القطع الصغير.

يحاول المؤلف في هذا الكتاب دراسة الجذور التاريخية لما أسماه "ببنية الفكر الصهيوني" ليس كحركة صهيونية وحسب وإنما كحركة حضارية "فاشية" تحاول أن تفرض قيماً لا عقلانية. ويحاول المؤلف من خلال دراسته الوصول إلى الأساس الفلسفي الذي تستند عليه الحركة الصهيونية موضحاً وحدة بنية الفكر الصهيونية وتجانسها رغم اختلاف المحتويات الأيديولوجية من مدرسة صهيونية لأخرى. ويحاول المؤلف أن يربط بين الأساس الفلسفي للصهيونية والموقف السياسي لها فيبين أن العنف، مثلاً، ليس ظاهرة عرضية في الصهيونية وإنما هو في الواقع نتاج حتمي لموقف متكامل.

وقد أستفدنا من هذا الكتاب في تعريفه الدقيق الذي يميز بين الصهيونية واليهودية، وفي نفس الوقت إبرازه للبعد الصهيوني الكامن داخل التراث اليهودي. ولا نأخذ هنا بتوجه المؤلف حول عدم وجود شعور قومي يختبئ خلف الصهيونية، فرغم أن الصهيونية، كما قال المؤلف، هي نتاج حضاري لظروف اقتصادية وتاريخية محددة إلا أن ذلك لا يلغي الشعور القومي اليهودي والذي ظل يتغذى باستمرار من تلاوة التوراة، وحتى إذا اتفقنا مع المؤلف في أن الشعور القومي لم يكن سبب نشوء الحركة الصهيونية إلا أننا نؤكد أنه كان السبب المباشر وراء انتشار الحركة الصهيونية بين يهود العالم الذين لم يخضعوا جميعاً لذات الظروف الاقتصادية والتاريخية، ومن هؤلاء يهود السودان.

- عبد الوهاب المسيري، **الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد**، مركز دار الشروق، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٢. (باللغة العربية) ٥٥٠ صفحة من القطع المتوسط.

يضم هذا الكتاب أطروحة المسيري المركزية حول مفهوم الجماعة الوظيفية والذي يزعم أنه أداة تحليلية لها قدرة تفسيرية عالية في دراسة الجماعات اليهودية. ويذهب الباحث إلى أن الجماعة الوظيفية هي ظاهرة عالمية، ويحاول أن يضع عبر هذا المفهوم الجماعات اليهودية في سياقاتهم التاريخية والإنسانية. ويصف عبر هذه الأداة كيف استجلبت الجماعات اليهودية من خارج المجتمع أو جندت في داخله للقيام بوظائف متعددة لا يمكن لغالبية أفراد المجتمع القيام بها لأنها وظائف: مشينة كالبغاء والربا، أو وظائف متميزة كالقضاء والترجمة والطب، أو وظائف ذات حساسية خاصة كحراسة الملك أو الجاسوسية.

تستند هذه الأطروحة على نماذج تاريخية متعددة تؤكد صلاحية مفهوم الجماعة الوظيفية كأداة تحليلية، ولا يجد الباحث ما يمنع من استخدام هذه الأداة في تفسير النشاط الاقتصادي والاجتماعي للجالية اليهودية في السودان.

- عبد الوهاب المسـيري، **اليد الخفية: دراسـة في الحركات اليهودية الهدامة والسـرية**، مركز دار الشـروق، الطبعة الثالثة، القاهرة، ٢٠٠٥. (باللغة العربية) ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط.

يتناول هذا الكتاب فكرة المؤامرة اليهودية من خلال عرض أهم جوانبها ودراسـة أهم ظواهرها، فيتناول الفصـل الأول فكرة المؤامرة وبرتكولات حكماء بني صـهيون والتلمود وارتباط اليهود بالسـحر. ويتناول الفصـلان الثاني والثالث الحركات اليهودية الهدامة، والإسرائيليات، وظاهرة اليهود المتخفين، والماسونية، والبهائية. ويرى البعض أن اليهود، انطلاقاً من رغبتهم المتأصلة في هدم المجتمعات الإسلامية والمسيحية، انضموا للحركات الشيوعية والاشتراكية، وهذا ما يناقشه المؤلف في الفصل الرابع. أما الفصـلان الخامس والسـادس فيتعاملان مع بعض الجرائم اليهودية المحددة مثل الاشـتغال بالبغاء والشـذوذ الجنسـي والجاسوسية والجرائم المالية. ويتناول الفصل السابع ما أسماه "بالعبقرية اليهودية". أما الفصل الثامن فقد خصصه لقضية اللوبي اليهودي.

ورغم أن المؤلف لا ينفي عن اليهود عملهم في بعض هذه المنظمات السرية إلا أنه يؤكد على أن التصورات التآمرية التي تهيمن على العقل العربي، أو ما يسـميه "بالنموذج الاختزالي"، أداة غير كافية بل مضـللة أحياناً في دراسـتنا وفهمنا وتحليلنا "للعدو" لأنها تضفي عليه قوة لا يستحقها.

ونتفق مع جُلَّ ما ذهب إليه الدكتور عبد الوهاب المسـيري في هذا المؤلف، بل ويسـتند عليه البحث في إلغاء اهتمامه بالماسونية التي يعتبرها الكثيرون تنظيماً يهودياً.

- عبد الوهاب المسـيري، **في الخطاب والمصـطلح الصـهيوني: دراسـة نظرية وتطبيقية**، مركز دار الشـروق، الطبعة الثانية، القاهرة، ٢٠٠٥. (باللغة العربية)، ٢٨٢ صفحة من القطع المتوسط.

يحاول المؤلف في هذا الكتاب تحليل وتفسير ما تنطوي عليه المصطلحات الصهيونية من مفاهيم عنصرية وادعاءات زائفة بغرض تضـليل الذهن الإنسـاني. ويعتمد في محاولته على تفكيك وإعادة تركيب المصـطلحات الصـهيونية والمفاهيم الكامنة وراءها. كما يحاول الوصـول إلى بعدها المعرفي ومرجعيتها النهائية، ويفترض أنها مرجعية واحدة لا تتغير وهي الافتراض الصـهيوني بأن اليهود شعب واحد له تاريخ مستقل ويتسم بخصـوصـية يهودية، وأن فلسـطين هي "إرتس إسـرائيل"، وهي كلمة عبرية تعني أرض إسرائيل.

وقد أفادنا هذا المؤلف بما قدمه من تعاريف وشروحات للمفاهيم والمصطلحات وشرح لها ولعمقها المعرفي ودلالاتها الضمنية.

2. **محور العلاقات اليهودية العربية:** ومعظم بحوث هذا المحور غير موضـوعية في تناولها، فهي إما منطلقة من تحيز عربي أو تحيز يهودي، لكن ذلك لا يلغي احتوائها على معلومات تاريخية. ومن أكثر البحوث فائدة في هذا المحور مما أطلع عليه الباحث اسـهامات الدكتور س. د. قويتين عن العرب واليهود في التاريخ، لعل أهمها على الإطلاق دراسته الممتازة عن وثائق جنيزة القاهرة، وهي:

- S.D. Goitein, *A Mediterranean Society*: *The Jewish Communities of the Arab World As Portrayed in the Documents of Cairo Geniza*, Vol. I, Economic Foundations, University of California Press, London, 10th reprint, 1999.

(باللغة الإنجليزية). ويحتوي هذا السفر على خمسة مجلدات ضخمة، ويقع الجزء الأول منه في نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير.

يبين المؤلف في مقدمة الجزء الأول أنه استند على فواتير يهودية مكتوبة باللغة العربية بالحرف العبري، فعمل على ترجمتها وتحليلها. وتعكس هذه الوثائق العلاقات الاقتصادية لليهود بالعالم العربي.

وقد قمنا بتتبع فهرست الكتاب مستخدمين الكلمات المفتاحية: (النوبه Nuba، زغاوة Zaghaua، والنيل Nile) وهي الأسماء المعروفة في تلك الفترة لبعض أقاليم السودان. وبقراءة الصفحات المحددة، غير المتصلة، تكشف لنا وجود نشاط يهودي مبكر في السودان كان قوامه تجارة الرقيق.

ورغم أهمية ما جاء في هذا الكتاب من معلومات، ورغم أنه شكّل جزءاً مهماً من التمهيد الذي قمنا به حول التواصل المبكر بين اليهود وسودان وادي النيل، إلا أننا لم نركّز كثيراً على ما جاء في هذا السفر لأنه يقع خارج الحدود التاريخية التي يغطيها هذا البحث.

3. **محور الوجود اليهودي في مصر**: ويكتسب هذا المحور أهميته من إمكانية قياس أوضاع اليهود في مصر على أوضاع اليهود في السودان خصوصاً في الفترة ما بين ١٨٢١ حتى ١٩٥٦، إذ كان السودان مرتبطاً بمصر سياسياً واقتصادياً رباطاً لا فكاك منه، وكما كان هناك ملك مصر والسودان كان هناك حاخامباشي لليهود في كلا البلدين. ومن أهم الدراسات التي اعتمد عليها البحث في هذا المحور دراسة سهام نصار:

- سهام نصار، **اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية**، دار الوحدة، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٠. (باللغة العربية)، حوالي ١٦١ صفحة من القطع المتوسط.

هذا الكتاب في الأصل دراسة أعدتها الباحثة ونالت بموجبها درجة الماجستير في الإعلام من جامعة القاهرة عام ١٩٧٧، بعنوان **الصحف اليهودية العربية في مصر**. ولذا فإن الكتاب يعتمد على الصحف اليهودية الصادرة من مصر.

استعرضت الباحثة في الفصلين الأول والثاني أوضاع اليهود في المجتمع المصري، وموقعهم من ظروف مصر السياسية، وهما الفصلان اللذان قدما فائدة كبيرة لهذا البحث. أما بقية الفصول السابعة فتدور موضوعاتها حول نشأة صحافة اليهود وتوجهاتها ودورها في نشر الوعي اليهودي. وقد أشارت إلى مشاركة بعض يهود السودان، مثل الحاخام ملكا، بالكتابة في بعض هذه الصحف خصوصاً ذات التوجه الصهيوني منها مثل صحيفة الشمس. كما تتعرض لتكوين المنظمات الصهيونية في مصر، منها منظمة بناي بيرت التي أنشأت فرعاً لها في السودان.

اتبعت المؤلفة الفصلان الأول والثاني منهجاً صارماً وسلساً في آن لعرض أوضاع الجالية اليهودية في مصر. إلا أنها وانطلاقاً من عروبية محضة تخرج بتعميمات مخلة عن الوجود اليهودي في العالم العربي، وهو ما نسعى لتحقيقه في هذا البحث.

4. **محور تاريخ السودان الحديث:** على الرغم من خلو هذا المحور من معلومات عن النشاط اليهودي في السودان إلا أنه شكَّل مرجعية مهمة لوضع المعلومات المتوافرة في المصادر الأخرى في سياقها التاريخي.

5. **محور الوجود اليهودي في السودان:** وليس هناك دراسات جادة حول هذا المحور باستثناء بحث تكميلي لنيل درجة الدبلوم العالي في الدراسات الإفريقية والآسيوية عام ١٩٧٦ بعنوان **موضوع عن اليهود في السودان**، وهو العمل الذي قام معده صلاح محمد أحمد بإعادة تحريره ونشره في كتاب:

- صلاح محمد أحمد، **الجالية اليهودية في السودان: النشأة.. الحياة.. الهجرة**، مركز الراصد للدراسات، (د. ط)، الخرطوم، ٢٠٠٤. (باللغة العربية)، حوالي ٦٣ صفحة من القطع المتوسط.

على عكس ما يبدو من عنوانه، هذا بحث صغير غير دقيق إذ لا يغطي عنوانه، ويحمد للمؤلف استناده على بعض الروايات التاريخية الشفوية في الجزء المتعلق بالسودان، إلا أننا نعيب عليه منهج تعامله مع هذه الروايات وقبولها بشكل كلي دون تحقيق أو تمحيص أو مقارنة. وقد استطاع المؤلف أن يجمع إفادات عدد من الإخباريين وشهود العيان المهمين والذين كانوا عناصر فاعلة في النشاط الاقتصادي والاجتماعي للجالية اليهودية في السودان، إلا أن ضعف الأساس المنهجي للمؤلف في جمع الإفادات الشفاهية والإفادة منها ضيع علينا الكثير من المعرفة التي كان يمكن استخراجها من هؤلاء الرواة الذين مات بعضهم وغادر البلاد بعضهم الآخر ولم يتبق منهم إلا عدد قليل. كما لم يوفق المؤلف في التوثيق لإخباريه: من هم؟ أعمارهم، وظائفهم، سكنهم، أصولهم، تعليمهم، أسرهم وأوضاعهم الاجتماعية، حضور الإفادة، فكل هذه البيانات تؤثر بالضرورة على الإفادة نفسها من ناحية المصداقية.

عنوّن المؤلف فصله الأول "بالعائلات ذات الأصول اليهودية في السودان" إلا أنه في واقع الأمر تناول **بعض** العائلات ذات الأصول اليهودية في السودان. وحتى هذه لم يعالجها وإنما اكتفى بإشارات غير دقيقة في معظم الأحوال. أما الفصل الثاني، ويتكون من ثلاث صفحات فقط، فقد خصصه لمحاولات الجالية اليهودية للارتباط بالخارج. وقد استقى هذا الفصل بالكامل من كتاب إلياهو سولومون ملكا سابق الذكر، لذا جاء هذا الفصل باهتاً ومقتضباً ولا يحقق أي غاية إذ أخفق المؤلف في ربط الجالية اليهود في السودان بالحركات اليهودية والصهيونية حول العالم. ويشغل الفصل الثالث الجزء الأكبر من هذا الكتاب، وهو عبارة عن جدول يوضح أسماء **بعض** أفراد الجالية اليهودية في السودان، ومكان وتاريخ ميلادهم، وتاريخ دخولهم ومغادرتهم للسودان، وأسباب المغادرة. وقد اعتمد هذا الفصل على ملفات إدارة المباحث الجنائية ووزارة الداخلية. ورغم الجهد الكبير الذي بذل في هذا المبحث إلا أنه لا يحقق أي غاية للكتاب ولا يثبت أو ينفي شيئاً لأنه افتقر لفرضية نظرية أو هدف يسعى له المؤلف. فلا هو إحصاء لأعضاء الجالية، ولا هو اختيار لأفراد برزوا بشكل أو بآخر منهم. ويتكون الفصل الرابع من

ثلاث صفحات، وفيه يتناول المؤلف ستاً من الشخصيات اليهودية التي ارتبطت بالسودان: مغامرين، ومؤرخين، وتجار. في الفصل الخامس والأخير يناقش المؤلف المقترحات والخطط الصهيونية التي سعت لإقامة وطن قومي لليهود في السودان. وهذا فصل جيد.

التواصل المبكر بين اليهود والسودان

ورد في **العهد القديم** ذكر "كوش"، أحد الأسماء التي عرفت بها بلاد السودان، ثلاث مرات على الأقل: مرة في إشارة عرضية كاسم لأحد أولاد حام بن نوح: "وأبناء حام: كوش ومصرايم وفوط وكنعان. وأبناء كوش: سبا وحويله وسبته ورعمه وسبتكا"،[١] ومرة في صيغة تحذيرية: "ويل لأرض حفيف الأجنحة في عَبر أنهار كوش، التي تبعث رسلاً في البحر في قوارب البرديِّ السابحة فوق المياه (...)"،[٢] أما الإشارة الثالثة فقد جاءت في سفر صفنيا وفيها يشار إلى أرض كوش بأرض المتضرعين للرب: "لذلك يقول الرب: انتظروني لأني عزمت في اليوم الذي أقوم فيه كشاهد أن أجمع الأمم وأحشد الممالك لأسكب عليهم سخطي واحتدام غضبي، لأن الأرض بكاملها ستؤكل بنار غيظي. عندئذ أُنقِّي شفاه الشعب ليدعو جميعهم باسم الرب ويعبدوه جنباً إلى جنب. فيقرب إلي شعبي ذبيحة من وراء أنهار كوش حيث يقيم المتضرعون إليَّ".[٣]

ويفهم من هذه السياقات أن العهد القديم، كتاب اليهود المقدس، قد عرف أرض كوش، وميّز بين سكانها، نسل كوش، وبين أرض مصر وسكانها من نسل مصرايم، وأن بعض سكان كوش قد عرفوا اليهودية، او عبدوا رب اليهود، على أقل تقدير، وتضرعوا إليه، على حد ما ورد في الكتاب المقدس.

ويشير **العهد الجديد** إلى أن اليهود قد عرفوا طريقهم إلى بلاط مملكة مروي، وعملوا في حكومة الكنداكة، بل ووصل أحدهم إلى منصب وزير الشؤون المالية للكنداكة. وجاء في سفر أعمال الرسل، وهو بمثابة سجل تاريخي لنشأة الكنيسة وامتدادها، ما نصه: "... ثم أن ملاكاً من عند الرب كلّم فيلبس فقال له: قم أذهب نحو الجنوب، ماشياً على الطريق البرية بين أورشليم وغزة. فقام وذهب. وإذا رجل حبشي خصي، يعمل وزيراً للشؤون المالية عند كنداكة ملكة الحبشة، كان قد حج إلى أورشليم للسجود فيها، وهو راجع إلى الحبشة راكباً في عربته، يقرأ في كتاب النبي أشعياء (...)."[٤]

ويرجح الأب فانتيني أن يكون هذا الحدث قد وقع حوالي عام ٣٧م، أي قبل أكثر من ٥٠٠ عام من قيام الممالك المسيحية في السودان،[٥] وأن الكنداكة ملكة الحبشة هي ملكة مروي- كبوشية "إذ أن العديد من الوثائق تؤكد أن هذا اللقب اختصت به ملكة مروي كبوشية".[٦]

---

(١) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح العاشر، الآيات ٦-٧.

(٢) العهد القديم، سفر أشعياء، الإصحاح الثامن عشر، الآيات ١-٢.

(٣) العهد القديم، سفر صفنيا، الإصحاح الثالث، الآيات ٨- ١٠.

(٤) العهد الجديد، سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثامن، الآيات ٢٦- ٢٨. وتشرح بقية الآيات من ٢٦ حتى ٣٩ كيف تم تعميد هذا الخصي وتنصيره.

(٥) ج. فانتيني، تاريخ المسيحية في الممالك النوبية القديمة والسودان الحديث، الخرطوم، ١٩٧٨، ص ٤١.

(٦) نفسه، ص ص ٤٠- ٤١.

ولعل معرفة هذا الخصي بالديانة اليهودية مسألة طبيعية إذا صح ما زعمه فانتيني من أن جزيرة الفنتينة، الواقعة جنوب أسوان، كانت تضم جالية يهودية بلغت نحواً من مليون نسمة، كانت تحتكر التجارة بين مصر وبلاد النوبه.(٧)

ونقرأ من بين سطور النص: أن هناك لغة مشتركة بين الخصي وبين فيلبس ولعلها اللغة اليونانية، اللغة التي كتب بها كتاب النبي أشعياء. ونستنتج أن اليهودية كانت ديانة معروفة في مملكة مروي، ولعل الوافدين إليها، من التجار اليهود، بشروا بها ونشروها في البلاط المروي، على الأقل، وقد وصل الإيمان بها إلى درجة الحج إلى أورشليم من أجل السجود فيها. كما نستنتج أن التجار اليهود كان لهم وجود مؤثر في المنطقة الممتدة جنوب مصر وشمال بلاد النوبة، ولابد أن الاحتكاك المادي، والتواصل اللغوي والديني قد عرّف الشعبين السوداني واليهودي كلاً بالآخر.

تورد بعض المصادر، استناداً على روايات شفاهية، عدداً من الروايات تفيد بقدوم جماعة من اليهود إلى السودان بحثاً عن ملاذ آمن لها ولهيكل سليمان، أهمها رواية ميشيل باركر، وهو قسيس ذو توجهات كنسية، جمعت هذه الرواية من الراوي (شيخ عبد الله) في يناير ١٩٩٦ بمنطقة الجريف غرب بالخرطوم. ويذكر أنه عرضت الرواية على عائلة الراوي المكونة من أكثر من ثلاثمائة فرد وقد أكدوا جميعاً صحة وقائعها. وتدور أحداث الرواية بين فلسطين واليمن وليبيا وجنوب مصر والسودان. وفي السودان بين قريتي جراد ونافع، في إقليم كردفان، ومدينتي الخرطوم وود مدني. ويقول باركر أنه زار المناطق السودانية التي وردت في الرواية وتحقق منها بنفسه.[١]

---

(٧) نفســه، ص ٤١. ولعل الرقم الذي ذكره فانتيني مبالغ فيه. وتشـير بعض المصــادر إلى الجزيرة باسـم جزيرة إلفنتاين، وهي كلمة يونانية تعني (جزيرة الفيلة)، وقد تشــكلت بها أول دياســبورا يهودية اســتيطانية قتالية لحماية حدود مصـــر الجنوبية لصـــالح الفراعنة. حول جزيرة إلفنتاين أنظر: عبد الوهاب المســيري، موســوعة اليهود واليهودية والصـــهيونية، المجلد الأول، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ص ١١٦، ١٥٢، ٣٩١.

١. تفيد الرواية باختصار، كما فهمها باركر، من نسختها الإنجليزية بأن الشيخ عبد الله وأفراد قرية جراد ينتمون إلى قبيلة الهوارة الذين تعود أصولهم إلى منطقة اليمن؛ وقد وصلوا إلى السودان في القرن السادس عشر. وكلمة "الهوارة" هي كلمة عربية لكن سكان منطقة جراد يعتقدون أنها مشتقة من الاسم العبري "هور" Hur مشيرين بذلك إلى جبل هور الذي توفي فيه هارون شقيق النبي موسى. وانتشرت قبيلة الهوارة في عدة مناطق وبأسماء مختلفة، لكنهم عرفوا باسم الهوارة في السودان، وليبيا، والجزء الجنوبي من مصر، واليمن، وهم ينحدرون من الشعب العبراني، من داؤود David، ثمرة زواج النبي سليمان من ملكة سبأ. ولعله من المهم أن نشير هنا إلى أن المصادر اليهودية لم تشر إلى هذا الزواج، كما لم يشر له القرآن الكريم لكنه ذكر أن ملكة سبأ هي بلقيس وأورد ذكر للقاء تم بينها وبين سليمان. وتتضمن الرواية تفاصيل كثيرة أخرى لا يسع المجال لذكرها. انظر:

Michael Parker, "Guardians of the Ark: A Sudanese Pilgrimage of Faith", Presented at *The Church in Sudan: Its Impact Past, Present and Future* , A Seminar held in Nairobi, February 16- 22, 1997, pp. 1- 20.

هناك أيضاً رواية صلاح عمر الصادق، ورواية محمد عبد القادر دورة،[2] ورواية صلاح محمد أحمد، [3]ورواية محمد آدم فاشر، ورواية مكي أبو قرجة. وجُلُّ [5]هذه الروايات، فيما يبدو لّي، نسخ من رواية كبرانقست الأكسومية. ويمكننا إجمالاً أن نلخص الرسالة الأساسية المشتركة بين كل هذه الروايات بعد تجريدها إلى: أن جماعة من اليهود هاجرت إلى اليمن، ومنه جاءت للسودان عن طريق صعيد مصر، تحمل معها معرفة دينية أو حضارية لم يألفها سكان السودان، واستقرت بمنطقة كردفان. [7]

---

٢ . صلاح عمر الصادق، تابوت العهد وهيكل إسرائيل في التوراة والإسرائيليات والسودان "في :صلاح عمر الصادق، **دراسات سودانية في الآثار والفولكلور والتاريخ**، دار عزة للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ ، ص ص ٣٠٦– 309. وهي نسخة أخري لرواية باركر– وتضيف عليها أن المجموعة هي إحدى قبائل بني إسرائيل المفقودة، وأنهم دخلوا عن طريق وادي هور، شمال غرب السودان.

٣ . عبد القادر محمد عبد القادر دوره، **الوسادة: تاريخ مملكة تقلي الإسلامية**، دار سولو للطباعة والنشر، الخرطوم، الطبعة الأولي، ٢٠٠٣ ، ص٢٠٥ . وتركز الرواية على قصة تابوت العهد، وتحدد مكان إقامة هذه المجموعة في مملكة تقلي.

٤ . صلاح محمد أحمد، **الجالية اليهودية في السودان :النشأة، الحياة، الهجرة**، مركز الراصد للدراسات، الطبعة الأولي، الخرطوم، ٢٠٠٤ ، ص ٤٦. وهي رواية مختصرة تحتوي على موتيفة واحدة من موتيفات رواية باركر، وهي أن ابن سليمان وبلقيس جاء واستقر في السودان في منطقة عرفت بعد ذلك باسم سوبا.

٥ . محمد آدم فاشر،" في تاريخ قبيلة الزغاوة"، في :حيدر إبراهيم على (تحرير)، **التنوع الثقافي وبناء الدولة الوطنية في السودان**، الطبعة الثانية، مركز الدراسات السودانية، القاهرة، ٢٠٠١ ، ص ص ٢١٤– ٢٢٩ . وهي ترد أصل الزغاوة إلى فلسطين، وأن الزغاوة هم من أدخل صناعة الحديد إلى أفريقيا.

٦ . مكي أبو قرجة، **اليهود في السودان :قراءة في كتاب إلياهو سولومون ملكا أطفال يعقوب في بقعة المهدي**، مركز عبد الكريم ميرغني، الطبعة الثانية، الخرطوم، ٢٠٠٧. وإضافة على تأكيدها على ثمرة العلاقة المحرمة بين سليمان وبلقيس والذي تسميه هذه الرواية (منليك)، فإنها تشير إلى أن يهود فيلة،وقد جاء ذكرهم في عدد من المصادر، قد هاجروا جنوباً إلى السودان.

٧ . وبهذا المعنى فإن جملة هذه الرواية هي تصوير قصصي لنظرية الغريب الحكيم التي تنبه لها عدد من المؤرخين السودانيين، ولعل أول من أشار إليها هو البروفسير هولت ثم تبناها البروفسير يوسف فضل حسن وأسس عليها دراساته حول قيام الممالك الإسلامية في السودان الشرقي.

وأياً كان الأمر فإنه من المؤكد أن السودان قد شهد هجرات عربية – سامية واسعة في الفترة بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر الميلاديين، يحملون معهم معرفة حضارية ودينية أسفرت عن نشوء الممالك الإسلامية، وقد سلكت بعض هذه الهجرات طريق مصر وبلاد اليمن عبر البحر الأحمر.

وفي عهد الحكم التركي المصري في السودان (١٨٢١– ١٨٨٥) أصبحت المدينة السودانية تضم خليطًا من المجموعات والأجناس الذين جذبهم النشاط التجاري وبريق المدينة، وكان بالمدينة جمهرة من التجار الأجانب المصريين والعرب والهنود والأوربيين، وأقاموا قنصلياتهم وشركاتهم وانتشروا حتى في المديرية الاستوائية. وقد قدر عدد الأجانب في مدينة الخرطوم وحدها، ما عدا المصريين، عام ١٨٨٣ بألف وخمسمائة إلى ألفي نسمة.[٨]

ولم تخل مدينة سودانية في ذلك العهد من الموظفين أو التجار أو الرحالة الأجانب، وقد ساعد على ذلك طبيعة المجتمع المفتوح في المدن السودانية في ذلك الوقت واستعداده لاستقبال الغرباء في حياة ماجنة أقرب إلى العبث من لهث حثيث وراء المتعة واللذة الجنسية. وظهر بين التجار الأجانب في المْدينة السودانية من يقوم بعمليات تسليف النقود وتحويلها إلى خارج البلاد.

ونفهم من كل هذا أن المدينة السودانية، التي نمت نموا مضطرداً في العهد التركي المصري وما واكبه من ارتفاع مستوى معيشة التجار والأجانب، والطبيعة الانفتاحية لمجتمع المدينة وازدهار حركة التجارة الخارجية، وظهور عمليات التحويل المالية والأعمال المصرفية، كل هذه الأسباب جعلت السودان جاذباً للتجار الأجانب الطامعين في مراكمة أرباحهم، وللباحثين عن أوضاع اقتصادية أفضل، وبطبيعة الحال فقد كان اليهود من بين هؤلاء. والحق أن معظم أجزاء الدولة العثمانية، على عكس مصر والسودان، عانت في بدايات القرن التاسع عشر من تدنٍ مريع في اقتصادها، مقارنة مع اقتصادها المزدهر في القرن السادس عشر. وقد تسببت العديد من العوامل الداخلية والخارجية في تدهور الاقتصاد العثماني من بينها تضاؤل أهمية البحر الأبيض المتوسط من الناحية الاقتصادية وتحول المحيط الأطلسي إلى ممر تجاري رئيسي، كما أن السياسات الخاطئة التي انتهجتها الدولة وتسببت في دخولها لحروب عديدة، بالإضافة للعجز الدائم في ميزان المدفوعات، مثلت أهم العوامل الداخلية التي

---

٨ . أحمد أحمد سيد أحمد، **تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري ١٨٢٠– ١٨٨٥**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠ ، ص ٢٦٩.

٩ . تعكس لنا بعض المصادر التي تناولت الحياة الاجتماعية في العهد التركي المصري هذه الحياة الماجنة في المدن السودانية من دعارة، ومتاجرة بالفتيات، وزنا بالجواري والسرايا، وتفش للواط. للمزيد أنظر: ريتشارد هِلِ (مترجم من الإيطالية إلى الإنجليزية)، وعبد العظيم محمد أحمد (مترجم من الإنجليزية إلى العربية)، على **تخوم العالم الإسلامي: حقبة من تاريخ السودان ١٨٢٢– ١٨٤١**، المطبوعات العربية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولي، ١٩٨٧، الفصل الخاص بالحياة الاجتماعية، ص ص ١٥٥– ١٥٨؛ أنظر أيضاً: أحمد أحمد سيد أحمد، مرجع سابق، ص ص ٢٨٨– ٢٩٦.

أزمت وضع الاقتصاد العثماني، وتجلت كل تلك العوامل في ارتفاع معدل التضخم. وفي ظل هذا الواقع، يمكننا أن نفهم توافد أعداد من اليهود، وأغلبهم من السفارديم، إلى السودان، مركز الجذب الجديد؛ حيث تمتع اليهود في السودان في ظل الحكم التركي المصري بكامل حريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية، وكان لديهم رئيس للجالية ومتحدث باسمها أمام السلطات الرسمية، وهو بن زيون كوشتي. وقد خصص جزءاً من منزله لأداء الشعائر اليهودية وغيرها من المناسبات والصلوات الدينية، مثل شعيرة السبت Shabbat.

أما في عهد الدولة المهدية فقد أجبر كل" الكفار" على الإسلام وسمتهم" بالمسالمة"، وكانت تراقب تصرفاتهم، وحضورهم للمسجد، وقد عيّن الخليفة أحمد ولد بشارة لمراقبة هؤلاء" المسالمة "وكان يقيم معهم ولعله كان مسموحاً له بحكم وظيفته أن يدخل ديارهم للتفتيش بين الحين والآخر. وقد منحت المهدية هؤلاء المسالمة قطع أراض واسعة في أم درمان مساحة الواحدة أكثر من ١٠٠٠ م٢؛ وسميت المنطقة باسم "المسالمة" كما كان بعض المسالمة يقيمون في الخرطوم. وضمن هؤلاء" المسالمة " أو "المسلمانية "عاش اليهود مجبرين على الإسلام، وعلى قطع علاقاتهم مع ذويهم بمصر، كما أجبروا على التزوج من سودانيات مسلمات.[١٠][١١]

ولعل اليهود، بخبرتهم بمثل هذه الضغوط، استطاعوا أن يأقلموا أنفسهم مع هذا الوضع الجديد، بل كان بعضهم يمارس شعائره سراً قبل الذهاب للمسجد. فبن زيون كوشتي، غيرّ اسمه[١٢] إلى بسيوني، واستطاع بدهائه وحنكته أن يحظى بثقة الخليفة وأصبح يقوم بأداء بعض المهام التجارية الكبيرة لصالحه بما في ذلك مقايضة المنتجات السودانية بالبضائع المستوردة من سواكن، وغيرها من ضروب التجارة. وبلغ نفوذه أنه كان يمثل كل اليهود في مجلس الخليفة ويدافع عن حقوقهم أمام اعتداءات الأنصار.[١٣]

١٠ . صمويل أتينجر، **اليهود في البلدان الإسلامية ١٨٥٠– ١٨٩٥** ، ترجمة جمال أحمد الرفاعي، المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب، الكويت، ١٩٨٥، ص ص ١٧٥– ١٨٠.

١١ . يبدو أن معظم هؤلاء الزوجات كن من السرايا؛ فإسرائيل داؤود بنيامين تزوج من دينكاوية تدعي أدوت، وقد غيرّ اسمها إلى سارة، وبن زيون كوشتي تزوج من فوراوية، أصبح اسمها منَه، كما يفهم من الأسباب التي سردها منديل لعدم ارتداده لليهودية في عهد الحكم الثنائي أنه قد تزوج من سودانية يغلب عليها اللون الزنجي. ولعل هذا ما يبرر عدم التفات السودانيين إلى ردة هؤلاء الزوجات وأبنائهن فيما بعد، وإن كان المتداول بين الأسر المنحدرة من هذا النسل أن في ذلك دلالة على التسامح الديني.

12. E. S. Malka, *op cit*, p 16.

13. Ibid , pp 16- 17.

وقد أكد لي هذه المعلومة حفدة إسرائيل وأضافوا أنهم سمعوا من والدهم عن جدهم أنه كان يقف عن يمين الخليفة في الصلاة بينما يقف بن زيون كوشتي عن يساره، خصوصا صلاة الصبح، حتى يؤكدوا ولاءهَم له. وقد كان بعض الأنصار يتساءلون

تنامي أعداد اليهود في السودان وتكوين الجالية اليهودية

شهد العام ١٨٩٦ دخول أول قطار سكة حديد إلى السودان حاملاً داخل عرباته، مع معدات جيش الحكم الثنائي، أعداداً من اليهود الذي قدموا للسودان يحدوهم الطموح التجاري والبحث عن منافذ جديدة لنشاطهم الاقتصادي، كما قدم بعضهم عاملاً في خدمة الجيش الإنجليزي. ولعل خير من يمثل هؤلاء اليهودي مراد إسرائيل العيني الذي جاء إلى السودان كمتعهد غذاء لجنود وضباط الجيش، و كافأته الحكومة الجديدة بمنحه أول ترخيص تجاري في مدينة الخرطوم بحري حيث انتهي خط السكة الحديد. فما هي الأسباب التي دفعت هؤلاء اليهود للقدوم للسودان في فترة الحكم الثنائي؟ وما مدى الارتباط بين اليهود وبريطانيا؟ وما هو أثر الرعاية البريطانية على أوضاع اليهود في مصر؟ وهل انعكست هذه الرعاية على اليهود المتوافدين للسودان؟ وما هي الفئات الاجتماعية التي ينتمي لها اليهود المتوافدون للسودان؟ وما هي الأنشطة الاقتصادية التي احترفوها في مصر؟ وهل نقلوها معهم إلى السودان؟ وما هي فرص الربح التي كانت متاحة لهم في السودان؟ وكيف استطاعت الشخصية اليهودية أن تستفيد من هذه الفرص؟

سقطت مصر في قبضة الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢، وقد أوجد هذا الاحتلال الظروف الملائمة لتواصل ازدهار أوضاع الجالية اليهودية في مصر، والذي ابتدأ منذ إنشاء الدولة المصرية الحديثة في عهد محمد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٨). وكانت بريطانيا هي الحليف [١٤] الأساسي للحركة القومية اليهودية، فهي الدولة التي منحتهم فيما بعد تصريح بلفور بإنشاء وطن قومي في فلسطين، وعملت على تنفيذ ما وعدت به. وتحت مظلة هذه الرعاية مارس اليهود نشاطهم في مصر دون مضايقات، بل أصبحت مصر هي القاعدة التي يحتشدون فيها قبل الانطلاق. وتعمق التحالف بين بريطانيا والأقليات اليهودية إبّان الحرب العالمية الأولى إذ تطوعت أعداد كبيرة من اليهود للمشاركة بجانب بريطانيا في الحرب، وتم تكوين فرقة عسكرية يهودية بالقرب من الإسكندرية عام ١٩١٥ أطلق عليها اسم" كتائب أبناء صهيون" وتراوح عددها بين ٥٠٠ و ٩٠٠ جندي. وانضم إليهم فيما بعد حوالي ١٥٠ من يهود الإسكندرية. وفي عام ١٩١٧، ولما كانت [١٥] الحرب تسير لغير صالح الحلفاء، [١] تطوعت أعداد جديدة من اليهود كونت "الفيلق اليهودي" الذي أعلن رسمياً في لندن باسم الكتيبة (٣٨) وأسندت رئاستها إلى الكولونيل جون هنري باترسون، وهو ضابط يهودي. وأرسلت القوات إلى مصر في عام ١٩١٨، ثم تكونت فيما بعد الكتيبة

عن سر المعاملة الطيبة التي يتلقاها اليهود من الخليفة على خلاف غيرهم من الأجانب. مقابلة مع السيد مصطفى إسحق داؤود، بحارة اليهود، حي البوستة.

١٤ . سهام نصار، مرجع سابق، ص ٣٣

١٥ . نفسه؛ نقلا عن:

Ministry of Finance and Economy, Statically Census Department, *Population Census of Egypt 1947*, Government Press, Cairo, 1954.

(٣٩) ثم الكتيبة (٤٠) من الفيلق اليهودي، وكان يهود مصر هم قوام كل هذه الوحدات العسكرية. وتم افتتاح مكاتب خاصة بتجنيد اليهود في كل من القاهرة والإسكندرية.

كان اليهود يشكلون جماعة وظيفية لها أهميتها بالنسبة لبريطانيا سواء بالنسبة لجهودهم العسكرية، أو خبراتهم المالية التي عززت الاقتصاد البريطاني. وفي نفس الوقت أصبح وجودهم مصدر قلق بريطاني. وإزاء التدفق المستمر ليهود أوربا الشرقية عبر القنال الإنجليزي اضطرت بريطانيا لإصدار "لائحة الأجانب" التي استهدفت منع المهاجرين اليهود من دخول الجزر البريطانية. وأصبح العقل البريطاني مشغولاً بالتفكير في إيجاد بدائل لتوطين اليهود، وهي الظروف التي تجلت، فيما بعد، في تصريح بلفور عام ١٩١٧. وفي ظل هذا السعي يمكن أن نفهم أسباب الرعاية البريطانية للتمدد اليهودي في المنطقة العربية، وفي مصر والسودان على وجه التحديد.

توغل اليهود إلى عمق النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في مصر، واحتلوا فيها مواقع اقتصادية وسياسية بارزة وحساسة، حتي أن الملك كان محاطاً بحاشية معظم أفرادها من اليهود الذين تمتعوا بثقته، وبنفوذه في نفس الوقت. وقد ساعدت طبيعة المجتمع المصري، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كمجتمع برجوازي ناشئ على إتاحة المجال أمام اليهود ليمارسوا نشاطهم الاقتصادي والاجتماعي في حرية واسعة، حتي استطاع بعضهم أن يسيطر على جوانب مهمة في الاقتصاد المصري.

أما في السودان، ومنذ سقوطه في يد الاحتلال الإنجليزي المصري وإعطاء بريطانيا صلاحيات مطلقة فيه بموجب اتفاقية الحكم الثنائي، أعلن اللورد كتشنر، سردار الجيش المصري سابقاً، والحاكم العام للسودان، في ١٢ ديسمبر١٨٩٩ فتح البلاد للتجارة، ولعله الإعلان الذي اعتبره رأس المال اليهودي دعوة له للاستثمار في السودان.

لم يختلف نهج خلف كتشنر، الفريق ونجت باشا، عن نهج سلفه في فتح الباب للتجارة الخارجية، ورعاية التجارة وتشجيعها، فنقرأ من منشور سياسته الذي استهل بها وظيفته كحاكم عام للسودان: (...) إذا تم ذلك عمدت إلى التجارة فأوسعت لكم ميادينها وأجريت لكم سيول خيراتها وأرضعتكم لبان ربحها وفعلت كل ما تسمح به حال الحكومة من تعديل ضرائبها وضرائب الأطيان وأجرة النقل (...) فما الذي يبغيه رأس المال اليهودي غير ذلك ليتدفق من مصر إلى السودان!

ويمكن إجمالاً أن نقسم يهود مصر الذين قدموا للسودان إلى فئتين، الفئة الأولي: يمثلها اليهود الذين يتمتعون بالجنسية المصرية، أو بالجنسيات الأوربية، وقد عاشت هذه الفئة وضعاً اقتصادياً مزدهراً وكانوا في قمة الهرم الاجتماعي والاقتصادي في مصر، وراكم هؤلاء الأرباح التجارية والرأسمالية وأسسوا الشركات والبيوتات المالية. وبنهاية العهد المهدوي وبداية الحقبة الجديدة من الحكم الثنائي في السودان تفتحت أمام هذه الفئة أسواق جديدة للاستثمار والتجارة وتصدير المنتجات السودانية واستيراد احتياجات حكومة السودان، وسكانه، من المنسوجات والسكر ومختلف السلع الاستهلاكية. وولجت أعداد من هذه الفئة إلى السودان وأسست فيه فروعاً لشركاتها. كما استعانت الحكومة الجديدة بأعداد منهم لإدارة شؤون البلاد وتأهيلها لربطها بالسوق الرأسمالي العالمي. وقد استقر معظم المنتمين لهذه الفئة في الخرطوم، التي كانت تناسب وضعهم الطبقي، وقد نشأت على

---

١٦ . نعوم شقير، **تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته**، الجزء الأول، الطبعة الأولي، مصر، ١٩٠٣ ، ص ١٦٠.

أكتافهم مؤسسات الجالية اليهودية مثل المعابد والأندية، إلا أن احتكاكهم بالمحيط السوداني كان ضعيفاً ولا يعدو بعض العلاقات مع وجهاء البلاد من التجار والأفندية.

أما الفئة الثانية فكانوا أقل ثراءً من الفئة الأولى، ومعظم أفراد هذه الفئة لا يحملون أي جنسية على الإطلاق، ويعتمدون في نشاطهم الاقتصادي على مهاراتهم الحرفية وخبراتهم التجارية. وقد وجدت هذه الفئة في السودان "الجديد"، الذي لم يؤهل سكانه بعد لاستيعاب المرحلة الجديدة وافتقروا للتعليم والتأهيل المهني والحرفي، وما زالوا يعيشون نمطاً تقليدياً من الحياة، وجدوا فيه الفرصة الملائمة لاستثمار مواهبهم. وقد نشط هؤلاء في تجارة التجزئة، وفي حرف مثل الحياكة، وتصليح النظارات والساعات. ويبدو أن أغلبهم استقر في مدينة أم درمان: حارة اليهود، حي البوستة، والمسالمة، وأبو روف. ولعلهم اختاروا مدينة أم درمان لطابعها الشعبي ولانخفاض تكاليف الحياة فيها، ولاستثمار القوة الشرائية الضخمة المتوافرة فيها، ولطبيعة أنواع التجارة التي كانوا يمارسونها؛ كما استقروا في بعض المدن التجارية الأخرى في السودان مثل مدينة الخرطوم بحري، كسلا، الأبيض، وود مدني، ويبدو أن الأخيرة شهدت انتعاشاً تجارياً كبيراً خصوصاً بعد إنشاء مشروع الجزيرة وتدفق العمالة إليها مما جعل قوتها الشرائية مربحة للعمل التجاري، فوصلت إلى ود مدني أعداد مقدرة من اليهود، وحظوا بأفضل الأراضي السكنية في المدينة. وقد التحمت هذه الفئة من اليهود مع يهود السودان الذين عاصروا المهدية، ويبدو أن بعض الأسر من هذه الفئة كانت أكثر انفتاحاً على المجتمع السوداني فاختلطت به وتشربت العادات والتقاليد السودانية وتزاوجت مع السودانيين، وقد أسلم، أو تسودن على أقل تقدير، جزء كبير من هذه الفئة، ورفض بعضهم مغادرة السودان.

وتوالى قدوم اليهود إلى السودان من مصر للعمل في مجال تجارة التجزئة لما فطنوا للأرباح العالية في هذا المنشط، فأسسوا المتاجر، ليس في أم درمان وحسب وإنما في عدة مدن من السودان. ونلاحظ أن معظم هؤلاء اليهود يأتون فرادى في بادئ الأمر، لكن سرعان ما تلحق بهم أسرهم، ثم عائلاتهم، ثم أصدقائهم، وهو ما يعكس لنا استقرار أوضاعهم، وقابلية السودان لاستيعاب المزيد منهم؛ وقد ارتبطت هذه الأسر مع يهود مصر بصلات قربى، كما يبدو أنهم نقلوا معهم من مصر نفس الأنماط من النشاط الاقتصادي فتخصصوا في تجارة القطن والأقمشة الحريرية والمنسوجات ولوازم الخياطة، بالإضافة لتجارة الجلود والصوف والصمغ العربي. وعادة ما تتخصص كل أسرة في منشط اقتصادي واحد أو منشطين على أكثر تقدير.

ومع بداية الأزمة المالية (١٩٣٠– ١٩٣٨) هاجر بعض اليهود خارج السودان إلا أنهم سرعان ما عادوا أدراجهم، ولعل أوضاعهم في السودان في ظل هذه الأزمة كانت أفضل من غيره إذ توافدت أعداد جديدة إلى السودان والتحمت بمن سبقهم من اليهود. وكان قد قدم للسودان، هروباً من الهولوكوست، أعداد من الأشكناز الباحثين عن الأمن والحرية الدينية، وهو ما كان

متوافراً لهم في السودان في ظل الرعاية البريطانية.   أما اليهود الذين كانوا بالسودانٌ منذ العهد التركي المصري، والذينْ داهنوا المهدية، فقد ارتد بعضهم بعد دخول قوات الحكم الثنائي إلى أم درمان، ولعلهم استطاعوا تهويد أبنائهم وزوجاتهم من السودانيات.

وتضامن يهود السودان مع الاحتلال الجديد تضامناً كاملاً، ولعل الظروف القاسية التي عاشوها في المهدية من أسلمة قسرية وتمييز ديني دفعتهم لاعتبار الاحتلال البريطاني للسودان استقلالاً لهم وفكاً لطوق من حديد وضعته المهدية على أعناقهم، وعلي كل الأقليات الدينية. ونفهم من مذكرات يوسف ميخائيل كيف كانت هذه الأقليات تترقب دخول قوات كتشنر للسودان بشوق ولهفة ورغبة في الخلاص. [٩] [١]

وكان من نتائج تطوع اليهود المصريين في الجيش الإنجليزي أن أصبحت لهم حظوة لدى الحكم الجديد في السودان خصوصاً وأن جُلّ يهود السودان كانوا قد قدموا إليه من مصر. كما كان الحاخامباشي، كبير حاخامات مصر، هو المسئول عن الرعاية الدينية ليهود السودان.   ولعل يهود مصر، ويهود بريطانيا إلى حد ما، عملوا لصالح يهوّد السودان وضغطوا لأجل تحقيق قدر طيب من الاستقرار والحماية لهم. وهو ما يمكن فهمه من تأسيس اليهود المصريين والبريطانيين للمنظمات الخيرية لمساعدة اليهود حول العالم مثل منظمة" مهر العذاري"، و"نقطة اللبن"، و"الصدقة في السر"، و"بناي بريت"، التي مارست

---

١٧ . مقابلة عبر الإنترنت باستخدام تقنية الماسنجر، مع الدكتور هيربرت وايز، وهو ينتمي لأحد العائلات اليهودية التي هربت من المحرقة النازية إلى السودان.

١٨ . مكي أبو قرجة، مرجع سابق، ص ص ٢٠– ٢٧.

١٩ . أنظر: يوسف ميخائيل، مرجع سابق، ص ١٦٥ . ويذكر (...)" :ونحن في حظ وانبساط وما نسمعوا إلا أخوانا التجار الذين يحضروا من بحري يقولوا الترك [يعني قوات الحكم الثنائي] متحركين لأجل محاربة الخليفة، وإن هذا الكلام سرا في البيوت نقولوا: ليته فال وكان حتى نخلصوا من هذا الظلم الحاصل وسفك الدما بالباطل، لاكن لا يقدر واحد منا يطلع هذا الخبر برا إلا في البيوت لما نكونوا لوحدنا ."(...) كما تعكس مذكرات بابكر بدري حالة التخاذل الذي عم جيش المهدية نتيجة ما لم به من فقر وظلم وقهر من أقارب الخليفة، ويذكر بابكر بدري وضع قوات المهدية قبل وأثناء معركة كرري وكيف هرب الجنود بإدعاء الإصابة بجرح من المعركة فيحمل المصاب أربعة من الجنود ويهربون خمستهم، وبذا تسربت قوات الخليفة ثم ما لبثت أن انفرجت أسارير هؤلاء الجنود وهم ينظرون لقوات كتشنر وهي تتمختر في شوارع أم درمان. أنظر: بابكر بدري، مرجع سابق، الجزء الأول، ص ص ١٧٨– ١٨٥.

٢٠ . نفهم هذا الأمر من سلطته التي أهلته ليصدر أمرا لأحد حاخامات اليهود بالذهاب للسودان والإشراف على تقاليد الطائفة الدينية. للمزيد أنظر:

Malka, op cit, p 27.

أنشطتها الخيرية في كل من القاهرة والإسكندرية، وافتتح فرع لها في السودان. وقد قدمت هذه المنظمات يد العون للمحتاجين من اليهود في كل مكان،[21] ولا شك أن من بينهم يهود السودان.

عمل اليهود المصريون، الوافدون "الجدد"، في مجال تجارة الأقطان، وقد كان هذا المنشط محتكراً بصورة كاملة للشركات الإنجليزية، إلا أن هؤلاء الوافدين الجدد استفادوا من خبرتهم في هذا المجال ونافسوا الشركات الإنجليزية، وكونّوا بضع شركات للعمل في تجارة الأقطان منها شركتا الخرطوم للأقطان والإسكندرية للأقطان.[22] والتحموا في الحياة الاجتماعية مع من سبقهم من يهود في السودان. ولعل إجادة يهود مصر للغة العربية، باللهجة المصرية أو باللهجات الشامية، جعل السلطات البريطانية تستعين بهم كطرف وسيط بينها وبين السكان المحليين في السودان كمترجمين، أو كموظفين منفذين لسياساتها، وكانت بريطانيا تتفادى تعيين المصريين، وهو ما تفاقم بعد مقتل السير لي ستاك في القاهرة (١٩٢٤)، وقيام ثورة ١٩٢٤ في السودان. وبالمقابل وفرت الحكومة لليهود النفوذ، والحماية والرعاية، فلم تقدم ولا شكوى واحدة حول سوء معاملة اليهود طوال فترة الحكم الثنائي للسودان،[23] على خلاف حال اليهود في بلدان شمال أفريقيا تحت الاحتلال الفرنسي.[24] بل وجد اليهود في السودان ما مكنّهم من السيطرة على مفاصل التجارة الخارجية.[25] وقد منحتهم الإدارة البريطانية جوازات سفر سودانية سواء لليهود المقيمين في السودان، أو الذين وفدوا إليه بعد الاحتلال.[26] واعتمدت الإدارة البريطانية التقاليد والشرائع اليهودية في قانون الأحوال الشخصية وتم تطبيقها على الجالية اليهودية، وخوّل حاخام اليهود بالبت في القضايا التي تخص اليهود وأعطي صلاحية أن يكون قراره ملزماً للمحاكم السودانية، في القضايا التي يكون طرفاها من اليهود، تطبيقاً وتنفيذاً.[27]

ووصلت قدرة اليهود على التدخل في شؤون الحكومة أن أعلنوا احتجاجهم على قرار تخصيص مدير مركز الخرطوم الذي يفرض على التجار إغلاق محالهم التجارية يومي الجمعة والأحد، وطالبوا بأن يشمل هذا القرار يوم السبت ليتمكن اليهود من أداء صلواتهم.[28] ويمكن أن نقرأ مدى انتشار واستقرار اليهود في السودان في ما نشرته صحيفة الرأي العام: "والخرطوم غدت أجنبية ليس فيها أثر للعروبة ولا للوطنيين، فأينما سرت في طرقاتها تبد هذه البنايات الضخمة فتسأل نفسك فيجيبك أن هذه البناية ملك لليهودي فلان، وتلك الفيلا بناها اليهودي فلان، وهذه الأرض الفضاء اشتراها يهودي ثالث من أربابها الوطنيين بثمن مرتفع (...) حتى الأراضي الزراعية التي ملكها بعض الوطنيين الفقراء في الضواحي يحاول اليهود شراءها بأثمان مغرية".[29]

---

٢١ . صمويل أتينجر، مرجع سابق، ص ٣٦٩.

٢٢ . مقابلة مع السيد إبراهيم منعم منصور، وزير المالية السابق.

٢٣ . مكي أبو قرجة، مرجع سابق، ص ٧٦.

٢٤ . صمويل أتينجر، مرجع سابق، ص ص ٤٠٨ وما بعدها.

25 Malka, *op cit*, p 112

26 Ibid, p 112.

27 Ibid , p 113

٢٨ . أبو قرجة، مرجع سابق، ص ٦٤.

٢٩ . باب" كلمة ونصف، **صحيفة الرأي العام**، بتاريخ الاثنين ١٦ ديسمبر ١٩٤٦

وعلى الرغم من عدم وجود إحصائيات دقيقة لأعداد اليهود في السودان في فترة الحكم الثنائي إلا أن عدداً من القرائن يدفعنا لترجيح أنه لم يكن كبيراً ولكنه كان يتنامى يوماً بعد يوم؛ وأورد بارنت مؤلف كتاب *Jewish Chronile* أن عدد اليهود عند زيارته للسودان كان حوالي ٣٥٠ فرداً؛ أما ألياهو سولمون ملكا فقد حصر عدد اليهود في السودان في فترة الحكم الثنائي بحوالي ١٠٠٠ فرد . وقد أورد حاخمباشي مصر في تقرير عن زيارته لليهود في السودان عام ١٩٠٨ أن عدد اليهود الذين اجتمع بهم كان حوالي ٢٠ رجلاً؛ فإذا أضفنا لهذا العدد ٢٠ زوجة لكل رجل ومتوسط ابنين إلى ثلاثة لكل أسرة فإن عدد اليهود في السودان يتراوح بين ٨٠ إلى ١٠٠ شخص ولعل العدد الذي ذكره بارنت هو عدد من قابلهم من اليهود، أو ربما يكون عدد البالغين منهم، الذين يرتادون النادي اليهودي، وفي ظل هذه الاحتمالات فلا أرى تضارباً بين الإحصاءين. ونرجح أن عدد اليهود الذين شاركوا في تأسيس الجالية وانتخاب مجلسها لم يتعد ١٠٠ شخص، منهم ٢٠ شخصاً فقط حقُ لهم التصويت. وتنامى عدد اليهود بعد هذه الفترة لكنه لم يتجاوز ١٠٠٠ شخص موزعين بين مدن الخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان ومدني وبورتسودان وشندي ومروي والأبيض والنهود.

وصل الحاخام سولمون ملكا إلى السودان قادماً من طبرية بفلسطين، مروراً بمصر، استجابة لرغبة الحاخام إلياهو حازان حاخامباشي الإسكندرية وكبير حاخامات مصر، والذي كان يشغل منصب كبير حاخامات ليبيا، كما أصبح من بين مبعوثي الاستيطان اليهودي في فلسطين. ولعل الجالية اليهودية في السودان كانت فرعاً لنظيرتها في مصر[٣٠]. واتساقا مع تمسك مصر بحقها في السودان كان الملك يقوم بتعيين كبير حاخامات واحد لمصر والسودان، ففي عام ١٩٢٥ أصدر الملك فؤاد أمراً ملكياً بتعيين الحاخام حاييم ناحوم، النائب في البرلمان المصري وعضو المجمع اللغوي في مصر، كبيراً لحاخامات مصر والسودان.[٣١]

لاحظ إلياهو حازان النمو المضطرد ليهود السودان مع عدم وجود حاخام لتنظيم حياتهم الدينية، لذا فقد أصدر أمراً للحاخام سولومون بالسفر إلى السودان والقيام بواجب القيادة الدينية ليهود السودان وتنظيم شؤون الجالية.[٣٢] وكان الحاخام سولومون ملكا وقتها في الثامنة والعشرين من عمره، وكان حاخاماً متخصصاً في التوراة والتلمود وعضواً في المحكمة الدينية (بيت دين) في طبرية، وتمت إجازته من قبل ثلاثة حاخامات إشكناز في صفد أقروا بنبوغه ومعرفته الدينية. وبهذا العمر والمعرفة والحماسة الدينية نفهم الاندفاع الذي جاء به ملكا للسودان.

كان أول ما ابتدر به ملكا نشاطه في السودان هو تأسيس وتنظيم الجالية، وتأسيس معبد لممارسة الشعائر اليهودية، إلا أن عدداً كبيراً من يهود السودان كانوا قد أسلموا تحت بطش الدولة المهدية. ولما كانت مهمتا تنظيم الجالية وتأسيس المعبد لا يمكن إنجازهما بالاعتماد على الوافدين الجدد من اليهود وحدهم، فقد ابتدر ملكا دعوة يهود المهدية للارتداد عن الإسلام

---

٣٠ . صمويل أتينجر، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

31 Malka, *op cit*, pp 104- 105
32 Ibid , p27

والعودة للديانة اليهودية، وما قد يتطلبه ذلك من تهويد الزوجات والأبناء المسلمين والسودانيين فاليهودية تقبل تهودُ "الأغيار" بالانتساب. ٣ ٣

ويبدو أن الأوضاع الاقتصادية المتحسنة لغير المسلمين في العهد الثنائي، وبراعة الحاخام الجديد وكاريزميته، وإغراءات هذين العاملين قد أفضيا إلى ردة العديد من" المسالمة "مع زوجاتهم وأبنائهم إلى الدين اليهودي ولعل أول سودانية تهودت مع زوجها هي "مِنَة بسيوني" وأعطيت اسم "حنا بت" وفقاً لتقاليد الهالاكاه (Halakha). وتهودّ معها أبناؤها: نعيمة "ثأعومي" وإستر، وداؤود وأعلنوا تهودّهم رسمياً في يوم ٣١ يناير ١٩٠٨، في حضور حاخامباشي الإسكندرية وكبير حاخامات مصر إلياهو حازان. أي بعد عام واحد من مقدم الحْاخام ملكا. وتبعتها بعد قليل "روزا سّليمان هندي"، زوجة اليهودي شالوم حكيم، ولقبت بـ "روزا السودانية"، وقد انتقلت للعيش بإسرائيل بعد وفاة زوجها وتأسيس الكيان الإسرائيلي. وسرعان ما أعلن عدد مقدر من يهود المهدية يهوديتهم هم وعائلاتهم السودانية. ٦

وقد تمسك بعض اليهود بدينهم الإسلامي مثل سليمان منديل الذي أصبح فيما بعد من أشد المتحمسين للدين الإسلامي والباذلين ما استطاعوا من أجل رفعته في السودان؛ وتعلل هؤلاء بأنه قد أنجب عقباً من زوجاتهم السودانيات، وبالتالي[٣] فأولاده وبناته لن يجدوا قبولاً عرقياً– دينياً متساوياً بين اليهود بيض البشرة المتوافدين حديثاً من مصر، لأنهم من أمهات سودانيات.

لم يكتف يهود السودان الجدد بتهويد "المسالمة" احتفالاً بزيارة الحاخام إلياهو حازان، فكرموه أيضا بإنشاء مجلس للجالية اليهودية في السودان، وتحت رعايته جرت أول انتخابات للجالية اليهودية في السودان في ٣٠ يناير١٩٠٨ بمعبد أم درمان. واتفق المجتمعون على تكريم ممثلهم في فترتي التركية المصرية والمهدية، بن زيون كوشتي، بانتخابه رئيساً مدى الحياة للجالية اليهودية في السودان. وقرر المجتمعون أن يعقد اجتماع الجالية في يناير من كل عام لاستيعاب الوافدين الجدد من اليهود خلال العام، وإعادة انتخاب مجلس الجالية. وأرسلت نتيجة الانتخابات إلى الحكومة السودانية في تقرير رسمي من مجلس الجالية. إلا أن هذا الجسم الجديد لم يعتمد بشكل رسمي حتى عام ١٩٣٣ وهو ما تبيِّنه المراسلات بين مجلس الجالية والسكرتير الإداري للحكومة السودانية.

---

33 Ibid , 31

٣٤ . كما تنصر العديد من "المسالمة" الذين كان بعضهم يهوديا فيما مضى والبعض الآخر كان مسيحياً. والهالاكاه كلمة عبرية يقابلها بالعربية مصطلح قانون أو تشريع، وأصلها من "هالاخاه" الآرامية، ومعناها الحرفي "الطريق القويم"، وكانت تعني في بداية الأمر "الحكم الشفهي الذي يصدره الفقهاء"، ثم أصبحت الكلمة تشير إلى الجانب التشريعي في اليهودية ككل وضمن ذلك الشريعة الشفاهية. أي أنها أصبحت تضم العرف والعادة والقوانين المحلية والمراسيم الشرعية. ويمكن أن نقول إجمالا أن كلمة هالاكاه تشير إلى الصياغة القانونية المحددة لتفاصيل الشريعة اليهودية.

35 Malka, *op cit*, p 31

٣٦ . أبو قرجة، مرجع سابق، ص ٢١

37 Malka, *op cit*, p 22

38 Ibid , 22

كانت الجالية اليهودية في الخرطوم بمثابة المركز والقلب النابض لليهود في السودان، فقد ضمت أثرياء اليهود في مجلسها التنفيذي، وهم بدورهم يديرون عدداً من الشركات التي تعمل في أقاليم السودان المختلفة، وقد استوعبت فروعها اليهود الموجودين في تلك الجهات. وبالمقابل كانت الجالية اليهودية في السودان رافداً للجالية اليهودية في مصر. ولعل مصر بدورها كانت رافداً للجاليات اليهودية في الشرق الأوسط. وكان حوالي ٩٠% من أفراد الجالية اليهودية في السودان من أصول سفاردية قدموا للسودان عن طريق مصر، من المغرب وتونس والجزائر، وبعضهم قدم من فرنسا وإيطاليا واليونان وتركيا. أما النسبة القليلة من الأشكناز فقد اندمجوا في الحياة السفاردية، وتزوج معظمهم من اليهود السفارديم بمصر وبالسودان. وقد حمل بعض ٩
اليهود في ألقابهم الجهات التي قدموا منها مثل: البغدادي، والمغربي، والحلبي، والسولوني (نسبة إلى سالونيكا) وقد تمصّر معظم اليهود قبل قدومهم للسودان. وكان معظم يهود السودان يتحدثون باللغة العربية باللهجة المصرية أو باللهجة الشامية، أما اليهود القادمون من أوربا فقد كانوا يتحدثون اللغة الإنجليزية أو الفرنسية بجانب اللغة العربية التي كانت لغة التخاطب والتواصل والتلاقي بين كل يهود السودان. [٤]

النشاط الاجتماعي للجالية اليهودية والتماهي في الذات السودانية:

لم يعرف السودان جيتو خاصاً باليهود، كما كان حالهم في معظم أنحاء العالم، وإن كان لهم تجمعات[٤]سكانية مثل سكنهم في حي المسالمة وحارة اليهود بأم درمان، وحي أبو صليب بالخرطوم. وكان معظم اليهود من الطبقة الغنية أو ٣ المتوسطة الدخل، [٤] بالإضافة لنيلهم حظاً طيباً من التعليم، مما مكنهم من الاحتكاك مع صفوة المجتمع السوداني في ذلك الوقت من كبار التجار وأثرياء ووجهاء الخرطوم وزعماء الطوائف والمثقفين والبيروقراطية السودانية الناشئة، وإقامة العلاقات الحميمة معهم.

وقد تأسست العلاقات بين اليهود والسودانيين، على اليهود الذين عاصروا الدولة المهدية، والحرفيين، وصغار التجار، ومتوسطي الدخل، و"المسالمة"، واليهود المتخفين. ولعل الارتباط البيولوجي الذي فرضته المهدية بإجبار " المسلمانية" على الزواج من سودانيات، كان أساساً للتواصل وترابط العلاقات بين اليهود والسودانيين. ومن أنصع الأمثلة على هذه الارتباطات زواج

---

39 Malka, *op cit*, p 65

40 Ibid , p65

41 Ibid , p65

٤٢ . الجيتو هو الحي المقصور على إحدى الأقليات الدينية أو القومية، لكن التسمية أصبحت ترتبط أساساً بأحياء اليهود في أوربا، ويحاط الجيتو بسور عال له بوابة أو أكثر تغلق عادة عند المساء. حول الجيتو وخصائصه وبنيته أنظر: عبد الوهاب المسيري، **الموسوعة**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٤٣٤.

٤٣ . صلاح محمد أحمد، مرجع سابق، ص ٦٢.

سليمان ماندل "منديل" من سودانية، وقد أقام ماندل بمدينة الأبيض وأنجب أبناء سودانيين، وعرف ابنه داؤود بنشاطه الصحفي الواسع.

لم تكن بالسودان صحيفة غير جريدة **حضارة السودان**، وقد شجعت على قيامها الحكومة ومنحت امتيازها للسادة الثلاثة: عبد الرحمن المهدي، على الميرغني، والشريف يوسف الهندي، وكانت جريدة شبه رسمية تعبر عن رأي حكومة السودان. فكان أن ابتدر داؤود مئديل إنشاء جريدة **ملتقى النهرين**، [٤] والتي نشرت لرواد الحركة الوطنية في السودان. كما اهتم داؤود ٥
منديل بالتراث السوداني فكان أول من نشر **الدوبيت السوداني وراتب الإمام المهدي، وطبقات ود ضيف الله.** وبالجملة فقد ٦
أصبح نسل سليمان منديل سودانيين عاطفة وانتماء، وبذلوا لأجل هذا الانتماء كل ما وسعهم.

ومن الأمثلة الساطعة لتفاعل اليهود مع الحياة السودانية أسرة التاجر البغدادي إسرائيل داؤود بنيامين، وقد تزوج في العهد المهدوي من سودانية، وأنجب منها أحد رواد الحركة الوطنية وأحد طلائع المسرحيين في السودان وهو السيد إبراهيم إسرائيل الشهير بإبراهيم إسرائيلي.

انتخب السيد إبراهيم إسرائيل في أول لجنة لنادي الخريجين، وكان من المساهمين نظرياً في[٧] تأسيس هذا النادي. ٤
وعلى الرغم من أن رئاسة هذا النادي الفخرية كانت للسيد سامسون، نائب مدير المعارف الإنجليزي، إلا أن تشكيل أعضاء

---

٤٤ . خضر حمد، **مذكرات خضر حمد: الحركة الوطنية السودانية، الاستقلال وما بعده،** الطبعة الأولي، ١٩٨٠ ، ص ٤٤

٤٥ . كانت **جريدة ملتقي النهرين** صحيفة وطنية ورغم أنها كانت صحيفة أدبية، إلا أن رواد الحركة الوطنية كانوا يمتطون الأدب للتعبير عن تطلعاتهم الاستقلالية، ولعل مما يؤكد هذا الأمر أن الصحيفة كانت تنشر لرواد الحركة الوطنية تحت أسماء مستعارة .أنظر: خضر حمد، المرجع السابق، ص ٤٥

٤٦ . أبو قرجة، مرجع سابق، ص ١٣. أنظر أيضا الدرديري محمد عثمان، **مذكراتي ١٩١٤– ١٩٥٨** ، مطبعة التمدن، الخرطوم، الطبعة الأولي، ١٩٦١ ، ص ١٤ – ٧٧ ؛ أنظر أيضاً:

Richard Hill, *Bibliography of the Anglo – Egyptian Sudan, from Earliest Times to 1937*, 2edition, Frank Cass &Co., LTD., London, 1967. p78

٤٧ . نادي الخريجين ليس هو مؤتمر الخريجين، وإن كان مؤتمر الخريجين، على حد تعبير السيد إبراهيم منعم منصور، هو امتداد لنادي الخريجين .مقابلة مع السيد إبراهيم منعم منصور.

٤٨ . يقول السيد الدرديري محمد عثمان عن هذا النادي: "لقد اتجه هذا النادي منذ اليوم الأول نهجا إصلاحياً بهدف تكوين نواة لجيل صالح يتحمل المسئولية. أنظر: الدرديري محمد عثمان، مرجع سابق، ص ص ١٤؛ للمزيد حول هذا النادي ودوره في إثراء ودفع الحركة الوطنية في السودان أنظر أيضا: أحمد محمد يس، **مذكرات أحمد محمد يس،** مركز محمد عمر بشير، أم درمان، دار عزة للطباعة والنشر، الطبعة الأولي، ٢٠٠١ ، ص ص ٣٨– ٦٠.

اللجنة يعكس الوجهة الوطنية للنادي؛ فقد ضمت اللجنة بجانب إبراهيم إسرائيل عدداً من رواد الحركة الوطنية منهم: الشيخ أحمد عثمان القاضي، السيد محمد الحسن دياب، السيد الدرديري محمد عثمان، وآخرون.

ومن اليهود الذين التحقوا بركب الحركة الوطنية في السودان طالب كلية غردون الشاب ديمتري البازار، الإغريقي الأب، وينحدر من جهة والدته من أصل يهودي نمساوي وهو حفيد سلاطين باشا، وقد فُصل من الكلية بعد الاحتجاجات والمظاهرات التي نظمها وقام بها طلاب كلية غردون عام ١٩١٩ تضامناً مع ثورة سعد زغلول في مصر.[٤٩]

وشارك رأس المال اليهودي في دفع مسيرة الحركة الوطنية، فتشير بعض المصادر إلى أن إسحق إسرائيل قد تبرع من ماله لإنشاء نادي الخريجين، كما تبرع حبيب كوهين عبر شركته مع عثمان صالح لإنشاء السّينما الوطنية التي أصبحت أول شركة مساهمة عامة سودانية.[٥١]

وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من يهود المهدية ارتدوا عن الإسلام إلا أن الانتماء الديني لم يقف عثرة أمام الارتباط البيولوجي، أو تمتعهم بالهوية السودانية، فاحتفظوا بهذا الرابط وأنشأوا من فوقه العلاقات الاجتماعية التي تعززه وتنميه. ويبدو أن معظم هؤلاء" المندمجين" قد اختاروا مفارقة الدين اليهودي، أو كانوا من اليهود العلمانيين إذ تحرم اليهودية الزواج بين اليهود وغير اليهود، بل تعتبر أن مثل هذا الزواج هو فجور وزنا مستمرين، ويعتبر الأولاد الذين يولدون من هذه المعاشرة "المرذولة" أبناء زنا.[٥٢]

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه ما تعرض له أبناء إسرائيل داؤود بنيامين حيث رفض اليهود السماح لهم بالصلاة في المعبد اليهودي لأنهم لا ينحدرون من أم يهودية، وقد تمسك أبناء إسرائيل بحقهم في الصلاة في المعبد حتى وصل الأمر إلى حد التشاجر بالأيدي. وقد انتهى الأمر بأن أعلن الابن الأكبر لإسرائيل تخليه عن الدين اليهودي والتحاقه بالإسلام، وتبعه أخوته في ذلك.[٥٣]

وقد نبَّه شوقي بدري في كتاباته عن مدينة أم درمان إلى فضل بعض العائلات والأسر اليهودية وشرح تعاطيها العميق مع الحياة السودانية بعاداتها وتقاليدها، وتحدث عن العديد من الزيجات الطوعية التي تمت بين السودانيين واليهود، ومن أشهرها

---

٤٩ . أحمد محمد يس، المرجع السابق، ص ١٧.

٥٠ . مقابلة مع الإخباري مصطفي إسحق داؤود. والشاهد أن إبراهيم إسرائيل، الأخ الأكبر لإسحق، والذي ساهم في هذا التبرع كان عضواً بلجنة النادي كما ذكرنا.

٥١ . عثمان حسن أحمد، **بين الأصالة والتحديث .. إبراهيم أحمد: حياة إنسان**، أفروجراف للطباعة والتغليف، الخرطوم، ١٩٩٤ ، ص ص ٨٤– ٨٩

٥٢ . على الرغم من هذا التحريم القاطع إلا أننا نجد بعض أنبياء اليهود وزعمائهم كانوا يتزوجون من غير اليهوديات. أنظر :عبد الوهاب المسيري، **الموسوعة**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ٦٥

٥٣ . مقابلة مع السيد مصطفي إسحق داؤود.

زواج محمد الفضل، أول مدير سوداني لمصلحة السكة الحديد، من السيدة وردة إسرائيل، وزواج إسحق إسرائيل من كريمة محمد عبد الرحيم، المؤرخ السوداني الكبير. وقد أسفرت معظم هذه الزيجات عن أسر ناجحة وأبناء متعلمين.[٤]

ولعل اليهود قد نجحوا في محاولاتهم للتماهي في الهوية السودانية إذ لم يقع بين أيدينا ما يفيد بتطرف تجاه اليهود في السودان طوال هذه الفترة. إلا من بعض الدعاوي التي تبنتها بعض الجماعات المتضررة من ازدهار الوضع الاقتصادي لليهود.

ويمكننا أن نفهم مدى هذا التماهي، إذا علمنا أن يهود السودان يكونون في مهاجرهم روابط ليهود السودان، ويؤمون المنتديات والحفلات والأماكن إلى يرتادها السودانيون، ويسارعون لصالات المطارات لاستقبال السودانيين ويبالغون في الاحتفاء بهم، ويمارسون العادات السودانية في الطعام والزواج. ويحكي شوقي بدري عن حفل عرس يهودي ضخم بفندق هيلتون بتل أبيب جرت مراسمه على الطقوس والتقاليد السودانية.[٦] [٥]

نشوء الأيديولوجيات المتضادة:

تنامي الشعور القومي اليهودي والنشاط الصهيوني للجالية اليهودية في الخرطوم

تأثرت الجماعات اليهودية بحركة الهسكلاه التي نادت باندماج اليهود في[٧] الأوطان والشعوب التي يقيمون فيها[٨]، إلا أنهم ســـرعان ما ارتدوا إلى القومية اليهودية عندما واجهوا عدم تقبل المجتمعات الأخرى للجماعات اليهودية بينها. يذهب العديد من المفكرين إلى أن القومية اليهودية متجذرة في الدين اليهودي نفســه "فما عرف التاريخ عنصـرية كعنصـرية اليهود في تماسـكها واسـتعصـائها على التطور واكتفائها بنفسـها، ولعل أهم أسـباب صـلابة هذه العنصـرية قيامها على عوامل دينية". وأخذ الشـــعور القومي للجماعات اليهودية يتنامى في ظل متلازمة "أن المقدس هو القومي والقومي هو المقدس". وهكذا

---

٥٤ . ٨٥ للمزيد حول هذا الموضوع :أنظر شوقي بدري، **حكاوي أم درمان**، دار الكاتب السوداني،، القاهرة، الطبعة الأولي، ١٩٩٩ ، ص ص ١٧١– ١٧٨

٥٥ . في الفترة من ١٩٤٨ ، أي بعد تأسيس الكيان الإسرائيلي، بدأت بعض الدعوات لمقاطعة اليهود وعدم التعامل معهم، وسنناقش هذه المسألة لاحقاً.

٥٦ . شوقي بدري، مرجع سابق، ص ص ١٧١– ١٧٨.

٥٧ . الهسكلاه تعبير عبراني يمكن ترجمته إلى "حركة التنوير".

٥٨ . عبد الوهاب المسيري، **نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني**، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، القاهرة، ١٩٧٣، (د. ط)، ص ٢٣.

٥٩ . محمود محمد طه، **مرجع سابق**، ص ٩١. ولتأكيد وجهة نظره استشهد ببعض الآيات الواردة في **العهد القديم**، سفر المزامير، مزمور ١٣٧: "على أنهار بابل هناك جلسنا وبكينا أيضاً عندما تذكرنا صهيون. كيف نرنم ترنيمة الرب في أرض غريبة؟ إن نسيتك يا أورشليم تنسي يميني، ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أفضل أورشليم على أفضل فرحي.

٦٠ . نفسه، ص ٣٧.

اكتسبت القومية اليهودية السند الديني بالإضافة للدلالة العرقية، فادعت الحق التاريخي الديني في إنشاء تكوين سياسي. وزعمت أن الشعب اليهودي يكوِّن عرقاً نقياً. ويعتقد إسرائيل شاحاك أن أسْطورة الأرض المقدسة كانت سبباً مهماً لتنامي الشعور القومي لليهود، لكنها ليست السبب الوحيد[٣] إذ تتداخل معها أسطورة شعب الله المختار، [٤] وقد ترسخت هذه الأساطير الدينية بحيث احتلت مكاناً في الشعور منفصلاً عن الدين؛ فهناك يهود لا يؤمنون بوجود الله نفسه، لكنهم في نفس الوقت يؤمنون بأنه أعطاهم أرض إسرائيل! [٥] [٦]

ويبدو أن اليهود السفارديم في البلدان العربية قد تحولوا نحو القومية اليهودية كرد فعل لتنامي النزعة الوطنية في البلدان العربية في محاولتها للانفكاك من الدولة العثمانية. فتحولت اليهودية في ظل هذا الوضع من رابطة روحية، شأنها كشأن سائر الأديان، إلى رابطة قومية عنصرية ادعت أن المسألة اليهودية هي مسألة قومية. [٧]

وعلى كل فإن مشاعر القومية اليهودية انتقلت ليهود السودان، بشكل أو بآخر، ولا بد أن التوجه القومي الحاد للحاخام ملكا كان مؤثراً في تبلور هذا الشعور لدى يهود السودان، فقد كان المعبد اليهودي في الخرطوم يقوم بتحفيظ الأطفال نشيد الهاتيكفاه Hatikvah، وهو نشيد يغذي الآمال بالعودة إلى أرض الميعاد، ويقوم الأطفال بترديده في المناسبات المختلفة التي تقام بالمعبد أو بالنادي اليهودي. [٦] ويمكن ترجمة المقطعين الأولَيْن من هذا النشيد إلي:

ما دامت روح اليهودي في أعماق القلب تتوق

وعيوننا تتطلع إلى صهيون

فأملنا لم يفقد أبداً

في الأوبة إلى أرض الآباء .. أرض صهيون

***

---

٦١ . وليم فهمي، **الهجرة إلى فلسطين**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د. ط)، ١٩٧٤، ص ٩.

٦٢ . نفسه، ص ١٧.

٦٣ . إسرائيل شاحاك، **تاريخ اليهود وديانتهم**، **مرجع سابق**، ص ٣٥.

٦٤ . أنظر في هذا الخصوص: عبد الوهاب المسيري، **الموسوعة**، مرجع سابق.

٦٥ . إسرائيل شاحاك، "فكرة الترحيل في المذهب الصهيوني"، ص ٩، في: **الترانسفير في الفكر الصهيوني**، منظمة التحرير الفلسطينية، الطبعة الأولي، ١٩٨٩، دار العرب، تونس، ص ص ٩- ٦٠.

٦٦ . خيرية قاسمية، **مرجع سابق**، ص ص ٧- ١١.

٦٧ . وليد الجعفري (إعداد وتحقيق)، **المستعمرات الاستيطانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة ١٩٦٧- ١٩٨٠**، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٩٨١، صفحات التقديم.

68 *Ibid*, p 44.

أمل ألفي عام

في أن نصبح أحراراً في وطننا

أرضنا القديمة

أرض أورشليم .. أرض صهيون

وقد تم تحوير هذا النشيد بعد تأسيس الكيان الصهيوني (١٩٤٨) إلى:

آمالنا ما زالت حاضرة ولم تغب

أحلامنا بالحياة الحرة في أرضنا

أرض صهيون .. أرض صهيون[٦٩]

أما خطبة الصـــــلاة في المعبد اليهودي بالخرطوم فكانت تلهج بالدعاء، إضـــــافة للملك جورج الخامس والملك فؤاد والحاكم العام البريطاني، للسـير هيربرت صـموبل المفوّض السـامي البريطاني في فلسـطين. وبعد قيام دولة إسـرائيل تضـمنت الخطبة الدعاء لحاييم وايزمان وبن جوريون.[٧٠]

ومن العناصــر المهمة التي تكشــف عن بروز القومية اليهودية ليهود الســودان دلالات أســماء بعض أفراد الجالية، فالتلمود يذكر أن اسم الشخص يؤثر في مستقبله. فالأسماء تعبر عن نفسية الجماعة التي أطلقت الاسم، كما يشكل الاسم في نفس الوقت أحد أهم محددات سلوك المسمى بعد أن يعي المعنى المراد من الاسم. ونجد في العهد القديم بعض الشـخصـيات تغير أسـماءها عقب المرور بتجربة مهمة لاسـتيعاب الدلالة الجديدة، ومن أشـهر هذه الأسـماء اسـم إسـرائيل نفسـه الذي اتخذه يعقوب.[٧١]

تدل أسماء اليهود في السودان على تأصل الثقافة الدينية اليهودية، وهي أهم الروافد التي غذّت الشعور القومي لليهود في السودان، ومنها **الأسماء التوراتية** مثل: يعقوب (ابن إسحق وهو اسم توراتي)، إسحق (وهو ابن إبراهيم، ومعناه يضحك[٧٢] وسمي بهذا الاسم لأن إبراهيم وزوجته ساره ضحكا عندما سمعا البشرى بأنه سيكون لهما ابن وهما في الشيخوخة)، إبراهيم (وهو أبو اليهود وكان يدعى أفراهام فتغير اسـمه بأمر الرب إلى أفراهيم)، بنيامين (الأخ الأصـغر ليوسـف)، حزقيال، إسـرائيل (وهو الاسـم الذي اكتسـبه يعقوب بعد أن صـارع الله، ويطلق على نسـل يعقوب والأسـباط الإثني عشـر)، شـاؤل (اسـم ورد لشـاؤل بن قيش، الملك الأول لبني إسـرائيل)، شـمعون (ورد اسـماً للابن الثاني ليعقوب وليئة)، موسـى (وهو موشـيه، ومعناه المنتشـل من

---

69 *Ibid*, p 44.

٧٠ . مكي أبو قرجة، **مرجع سابق**، ص ص ٢٧– ٢٨.

٧١ . غيّر يعقوب اسمه إلى إسرائيل، ومعناه مصارع الرب، بعدما مر بتجربة صارع فيها الرب صراع الند للند وانتهت بخلع فخذه. ولعل هذه الحادثة إحدى تأثيرات الأساطير اليونانية على الديانة اليهودية. حول هذا الموضوع أنظر: عبد الوهاب المسيري، **الموسوعة، مرجع سابق**، ص ٣٣٣.

٧٢ . نستند في تفسير الأسماء علي: سناء عبد اللطيف، **مرجع سابق**.

الماء وهو الأخ الأصغر لمريم وهارون وابن عمرام ويوخاخيد)، داؤود (ملك إسرائيل)، سليمان وسولومو وشلومو (وسليمان هو الملك الثالث بعد أن عرف بنو إسرائيل الملكية)، إستير (اسم ملكة يهودية وبطلة دينية تم تخليدها في التاريخ اليهودي لأنها أنقذت عمها مردخاي وجميع يهود فارس من المذبحة التي كان قد دبرها هامان وزير أحشويروش ملك فارس). ومن أسماء يهود السودان ذات البعد الديني القومي **الأسماء المقرائية** مثل: آرون (وهي كلمة عبرية تعني التابوت أو الخزانة، ويقال أنها إشارة إلى تابوت العهد أو الخزانة التي حفظت فيها لوحات العهد في هيكل سليمان). وهناك أيضاً الأسماء المرتبطة بالإله مثل: إيلي (وتعني إلهي)، إليعازر (إلهي المستعان)، إلياهو (هو الله)، دانيال (الإله العادل). ومن **الأسماء الدالة على فكرة القومية العنصرية** اسم بن زيون (أبناء صهيون). وتعكس جُلٌّ أسماء اليهود في السودان توجهاً دينياً توراتياً عميقاً.

وعززت زيارات كبار اليهود ذوي النزعة الصهيونية إلى السودان من التوجه القومي الذي ابتدرته الجالية اليهودية في السودان منذ أن اختارت اسم مكابي عنواناً لنشاطها الرياضي والاجتماعي، وإصرارها على ترديد أناشيد الهاتيكفاه. ففي عام ١٩٣٤ زار السودان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية السيد ناحوم سوكولوف،[٧٣] وهو من كبار المعجبين بثيودور هرتزل، وقد انضم إليه ليعمل كسكرتير عام للمنظمة الصهيونية التي أسسها هرتزل، كما شارك ناحوم في المفاوضات اليهودية التي توِّجت بالحصول على وعد بلفور (١٩١٧). وتولى رئاسة الوفد اليهودي لمؤتمر السلام في باريس (١٩١٩). وأخيراً تولى رئاسة الوكالة اليهودية والمنظمة الصهيونية العالمية، وله عدة كتب وترجمات أهمها كتابه **تاريخ الصهيونية** الذي يحلل فيه الجذور الغربية للفكرة الصهيونية، ويعد أول تاريخ للصهيونية وبمنزلة تاريخها الرسمي.[٧٤] ولعل الاستقبال الكبير والحاشد الذي لاقاه من الجالية يعكس مدى تنامي الشعور القومي لليهود في السودان. وقد أعد له حفل استقبال كبير في نادي مكابي الرياضي حضره جميع أفراد الجالية بمن فيهم المترددون من نساء وشيوخ. بل وقادت الجالية مسيرة صغيرة للترحيب بالضيف الكبير.

وزار السودان أيضاً إسحق حليفي هيرتزوج كبير حاخامات اليهود الأشكناز في إسرائيل، ووالد حاييم هيرتزوج رئيس الكيان الصهيوني (١٩٨٣– ١٩٩٣).[٧٥] وكان استقبال اسحق حليفي أكثر حيوية من استقبال ناحوم سوكولوف. فأعدت له الجالية استقبالاً كبيراً بالمعبد اليهودي بالخرطوم، وجمع له الأطفال في المعبد ليقوم بمباركتهم.[٧٦] ويعكس هذا الأمر نوع التنشئة الاجتماعية التي كان يتلقاها أطفال الجالية اليهودية في الخرطوم. وكان لهاتين الزيارتين المهمتين وقعهما في نفوس أفراد الجالية اليهودية وبث الروح القومية فيهم، فكيف عبروا عن هذا الشعور؟ ٧٧

73 Malka, *op cit*, p70.

٧٤ . عبد الوهاب المسيري، **الموسوعة**، الجزء الثاني، **مرجع سابق**، ص ص ٢٧٥– ٢٧٦.

75 *Ibid*, p 71.

76 *Ibid*, p74.

٧٧ . مكي أبو قرجة، **مرجع سابق**، ص ص ٥٠– ٥٢.

كان أول شكل من أشكال التعبير الصهيوني للجالية اليهودية في السودان هو مشاركتها الراتبة في الكتابة لـــ**صحيفة الشمس** اليهودية الأسبوعية التي تصدر من مصر، وهي صحيفة يهودية باللغة العربية[78] بدأت في الصدور عام ١٩٣٤[79]، وكان يرأس تحريرها سعد يعقوب مالكي، وهو من كبار الصهاينة في مصر.[80]

وعبرت الصهيونية عن نفسها صراحة في السودان بقدوم ألكسندر بن لاسين، مدير قسم الاستيراد بشركة راي إيفانز، إلى الخرطوم وهو صهيوني بارز من الإسكندرية. ويبدو أن مهمة ألكسندر لاسين الأساسية كانت تجنيد عدد من الشباب اليهودي الذي وفد إلى الخرطوم، ولا نعرف تحديداً ما هو الغرض الذي كان يُجنّد له هؤلاء الشباب، لكنه يبدو من البديهي أن البعد الصهيوني كان حاضراً في هذه المهمة.[81] كما أصبحت الجالية مكاناً يحتشد فيه يهود اليمن وأثيوبيا وإرتريا قبل ترحيلهم إلى إسرائيل، وكانت الجالية اليهودية في السودان تقوم بواجب إسكانهم وإعاشتهم وترحيلهم بالقطار إلى بورتسودان، ثم يتولى بعض أفراد الجالية في بورتسودان ترحيلهم بواسطة الزوارق إلى حيفا.[82]

وكان قمة تجلي الشعور القومي اليهودي وتعبيره العملي الصارخ عن نشاط صهيوني في السودان يتمثل في إنشاء فرع لمنظمة بناي بيرت في السودان. فما هي هذه المنظمة؟ وما هي أنشطتها؟ وكيف تأسس فرعها في السودان؟

تأسست منظمة بناي بيرت في بادئ الأمر كهيئة يهودية أخوية بهدف "توحيد الإسرائيليين للعمل من أجل تنمية مصالحهم العليا ومصالح الإنسانية"، وكان شعارها "المعاملة الطيبة والحب الأخوي والتوافق بين اليهود" وقد نمت بناي بيرت حتى أصبح لها فروع في ٤٥ دولة، وتضم نحو ٥٠٠ ألف عضو.[83] وكانت منظمة بناي بيرت، ومعناها أخوان العهد، قد نشأت منذ عام ١٨٤٣. ثم أنشأت فروعها في كل من القاهرة والإسكندرية عام ١٨٩١ كمنظمة خيرية.[84] ولابد أن تصريح بلفور قد أعطاها روحاً جديدة تجلّت في اتساع قاعدتها لتفتتح فرعاً لها في السودان.

ففي عام ١٩٣٤ قام أمين مال منظمة بناي بيرت في مصر، ورئيسها فيما بعد، السيد عزرا رودريجيز بزيارة للسودان اجتمع فيها مع أعضاء الجالية، ومع مجلسها، لمناقشة مسألة تأسيس فرع للمنظمة في الخرطوم كجزء من المنظمة الإقليمية

---

78 Malka, *op cit*, pp 39- 40.

٧٩ . سهام نصار، **مرجع سابق**، ص ص٦٣– ٦٧. وتذكر الكاتبة أن التوجه الصهيوني للصحيفة وضح منذ الوهلة الأولى فقد جندت الصحيفة نفسها لخدمة هدف الصهيونية الرئيسي وهو المطالبة بحق العودة إلى فلسطين وإقامة وطن قومي فيها، وقد نجحت الصحيفة في إيجاد رابطة شبه قومية بين اليهود الشرقيين، وبثت الروح القومية اليهودية وقوتها بين اليهود في المشرق. وقد أغلقت الصحيفة مكاتبها عام ١٩٤٨ بعد الشكوي التي قدمت ضدها من جامعة الدول العربية بتهمة تأييد الصهيونية وتصدير الأموال العربية لصالح الحركة الصهيونية في فلسطين.

٨٢

٨١ . أنظر مكي أبو قرجة، **مرجع سابق**، ص ٤٣.

82 Malka, *op cit*, p 85.

٨٣ . عبد الوهاب المسيري، **الموسوعة**، الجزء الثاني، **مرجع سابق**، ص ٣٣٥.

٨٤ . نفسه، ص ٣٦٩.

بالقاهرة. وفي ديسمبر من نفس العام، وبحضور عزرا رودريجيز تم افتتاح فرع لمنظمة بناي بيرت في الخرطوم، وأعطيت اسم بن زيون كوشتي، ولعله الاسم الذي لا خلاف عليه في السودان والذي سيضمن التفاف أفراد الجالية اليهودية حول المنظمة الصهيونية الجديدة. وشهدت مباني المعبد اليهودي في الخرطوم الاجتماع التأسيسي للمنظمة حيث تم تكوين مكتبها التنفيذي من: إبراهيم سيروسي رئيساً، الحاخام سولومون ملكا راعياً، الدكتور سليمان بسيوني نائباً للرئيس، إلياهو ملكا وليون أورتاسي نواباً للرئيس وسكرتارية للمنظمة.[٥] وقد شارك يهود السودان بفعّالية في هذه المنظمة، وكتبوا في مجلتها الدورية بناي بيرت مقزين (*B'nai B'irth Magazine*)، ومن أبواب المجلة نافذة تطل على يهود السودان اسمها "يهود السودان Jews of the Sudan".[٦] [٨]

ولما كان رئيس فرع المنظمة في السودان إبراهيم سيروسي، هو في نفس الوقت رئيس الجالية اليهودية في السودان، وراعي المنظمة هو القائد الديني للجالية، فيمكننا أن نستنتج أن التلازم بين اليهودية والصهيونية في السودان كان قائماً بشكل مركب فكرياً وتنظيمياً، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا حكمنا بأن معظم أعضاء الجالية اليهودية في السودان كانوا في نفس الوقت أعضاء المنظمة الصهيونية في السودان. ولعل مصائر أفراد الجالية اليهودية في السودان بعد مغادرتها تؤكد ما ذهبنا إليه إذ توجه جزء كبير منهم إلى إسرائيل وعاشوا فيها كيهود وكصهاينة بالضرورة. والتحق الآخرون منهم بالمنظمات الصهيونية المختلفة ومنها منظمة بناي بيرت في فرنسا وفي الولايات المتحدة، وتقلدوا منها أوسمة الخدمة الممتازة.[٧]

نشوء الأيديولجيات المتضادة:

تدهور أوضاع الجالية وخروج اليهود من السودان

نفهم من التقرير الذي كتبه مدير الأمن العام في الخرطوم عام ١٩٣٨، أنه كان بالسودان، حتي نهاية عقد الثلاثينات، حوالي ٤٠ عائلة يهودية تعيش بين الناس باحترام وتناغم كاملين، وأن الكراهية تجاه اليهود تكاد تكون معدومة فهي محصورة وسط عدد قليل من الناس وليس وراءها دافع محدد وإنما هي انعكاس لموقف الدول العربية الأخرى.[91] وتبين هذه الإفادة أن اليهود كانوا يتمتعون حتي ذلك الوقت باحترام الناس وحسن التعامل معهم. ولعل الاستثناء الذي أسماه التقرير "بالفئة المحدودة" لم يكن تأثراً بموقف الدول العربية الأخرى وحسب وإنما كان وراءه تناقض خفي يكمن في ازدهار وضع هذه الأسر اليهودية. ويبدو أن هذه "الفئة المحدودة" اتسعت شيئاً فشيئاً حتى أصبحت هي الرأي العام السائد في السودان حول اليهود ونظرة عامة الناس لهم.

---

85 Malka, *op cit*, pp 86- 99.
86 *Ibid*, pp 39- 40.
87 *Ibid*, pp 86- 99.

91 . تقرير كتبه مدير الأمن العام في الخرطوم بتاريخ ١٦ ديسمبر ١٩٣٨. أنظر:
دار الوثائق القومية *Public security office*, Kh,6, 3, 17

لقد شـــهدت الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية انهيار غالبية النظم التي وفرت الظروف الملائمة للجاليات اليهودية في شـمال أفريقيا،[92] وفي السـودان التقى الخاص، متمثلاً في الأحداث التي شـهدها السـودان، بالعام المتمثل في التحولات السياسية والتاريخية في منطقة الشرق الأوسط، فأدت كل هذه التغييرات إلى مغادرة اليهود للسودان.

بدأت أوضـاع الجالية اليهودية في السودان تتدهور منذ نهاية عقد الأربعينات، وتحديداً منذ تأسيس الكيان الإسرائيلي في فلسطين (١٩٤٨)، وحتى بداية عقد السبعينات عندما طبقت حكومة النميري (١٩٦٩– ١٩٨٥) القوانين الاشتراكية. وبين هذين التاريخين محطات مهمة أضـعفت الجالية اليهودية في السـودان وعمقت من غربتها أهمها نجاح الضـباط الأحرار في السـيطرة على مقاليد الحكم في مصـر (١٩٥٢)، واسـتقلال السـودان (يناير ١٩٥٦)، والعدوان الثلاثي على مصـر (يوليو ١٩٥٦)، وحرب النكسة (يونيو ١٩٦٧)، ومؤتمر القمة العربية في الخرطوم الشهير بـ"مؤتمر اللاءات الثلاث" (١٩٦٧).

لم تكن هذه الأحداث منفصـلة عن بعضـها البعض، وبالتالي لا يصـح لنا أن نتناول أياً منها بمعزل عن الآخر، خصـوصـاً وأنها ما كانت أن تغير من نظرة السـودانيين وتقبلهم لليهود لولا بزوغ الأيديولوجيا العربية الإسـلامية كعنصـر فعّال جعل من هذه الأحداث زيتاً صب على النار فأسعر العداء لليهود ولكيانهم الجديد.

ولكن لا تنشأ الأيدلوجيات من فراغ، فلابد أن ترتكز على أرضية صلبة من الواقع، ولابد أن تجد المحمول الاجتماعي الذي يرى فيها معبراً عنه وبالتالي يتبناها. فما هي هذه الأرضـية التي بُني عليها العداء لليهود؟ ومن ثم كيف عبرت الأيدولوجيا العربية عن هذا العداء؟

تقودنا الإجابة على هذه التسـاؤلات للنظر في التناقضـات الداخلية لظاهرة الازدهار التجاري والاقتصـادي ليهود السـودان، فقد تضـررت من هذا الازدهار فئة واسعة من التجار الوطنيين وهم، بمقتضـى الحال، وبحكم تكوينهم العرقي ووعيهم الاجتماعي، طلائع المجتمع الجديد وقيادته، ومنهم تحدرت البرجوازية السـودانية الصـاعدة من أفندية ومثقفين وإداريين، وقد ضـاقت الأحوال بهذه الفئة في ظل تنافس حاد، وفي ظل التسـهيلات الإدارية والاقتصـادية التي تقدمها حكومة العهد الثنائي لليهود وللتجار الأجانب بصورة عامة. وبهذا المعنى فإن تدهور أوضـاع اليهود في السودان كان كامناً في الازدهار الذي عاشوه طوال فترة الحكم الثنائي. وكانت الخرطوم قد شهدت مداً تجارياً يهودياً ضخماً، ونشط التجار اليهود في شراء الأراضي الزراعية حول الخرطوم، وبعض العمارات والمسـاكن والأراضـي داخل الخرطوم، فشـعر التجار الوطنيون، ومنسـوبو البرجوازية الوطنية بصورة عامة، أنهم على وشك خسارة موقعهم الاقتصادي والاجتماعي.

وقد عبّرت هذه الفئة عن مخاوفها صراحة، فنشرت صحيفة **الرأي العام** "(...) قد لا تمضي سنوات قليلة حتي تصبح الخرطوم وأراضي النواحي الزراعية ملكاً خالصاً لليهود لا ينازعهم فيها منازع من الوطنيين بفضل مهارتهم التجارية وتجاربهم في اسـتثمار المال للمسـتقبل وغفلة الوطنيين وفقرهم، الأمر الذي يجعلنا نعيش في بلادنا غرباء، وأن ندفع ثمن غفلتنا وفقرنا غالياً

92 . صمويل أتينجر، **مرجع سابق**، ص ٤٣٩.

في أيامنا القادمة".[93] ويكشف المقال عن مصدر مخاوف هذه الفئة: "إننا لا ننغس على اليهود رزقهم الوفير الذي يمكنهم من أراضينا ونعلم حق العلم أن اليهود مذ وجدوا على الأرض نهازو [هكذا] فرص التجارة والعمران".[94]

ويبدو أن مخاوف هذه الفئة على موقعها الاقتصـــادي قد تجلَّت وتشـــكلت في ظل الأيديولوجيا العربية تدعمها الثقافة العربية، لغةً وديناً، والانتماء أو إدعاء الانتماء للعرق العربي. وقد كانت الأيديولوجيا العربية وقتها تعلو بصـــوت الكفاح ضـــد الاغتصـاب اليهودي لأرض فلسـطين، وهي بذلك خير ما يعبر عن العداء لليهود: "... ولكننا نخشـي أن يؤول أمرنا إلى ما آل إليه أمر فلسطين .. دماء ودموع واغتصاب وسلطان. فمشكلة فلسطين بدأت بالتملك الفردي للدور والأراضي في غفلة من أهلها ثم تطورت إلى الوضع المؤلم الحاضر الذي استعصى على الحل".[95]

تبنت الفئات السودانية المختلفة، المتضررة من الازدهار الاقتصادي والتجاري للجالية اليهودية في السودان، الأطروحة العروبية، وعملت على نشرها وبثها وسط عامة المواطنين. ونشـرت الدعاية المضـادة لليهود،[95] واسـتنجدت هذه الفئات بحكومة السودان لوقف المد التجاري اليهودي: "لذا نرجو من حكومة السودان التي نصبت نفسـها وصـية على هذا الشـعب أن تحفظ له أراضـيه ومنازله من هذا التوسـع اليهودي الجديد فلا تدعه يستغل فقر وجهل الشـعب في إقامة وضـع يتعسر حله في المستقبل على الحكومة وعلى الشــعب. وإلى أن تســتيقظ الحكومة لوضـــع حد لهذا الأمر ســنردد في حســرة وداعاً عاصــمتنا .. وداعاً أراضينا".[96]

واسـتطاعت هذه الدعاوي أن تكتسـح الرأي العام السـوداني، خصـوصـاً في منطقة وسـط السـودان، التي يغلب عليها الانتماء العربي، وهي في ذات الوقت مركز الثقل الحضاري والسياسي في السودان. وأصبحت قضية الاعتداء الصهيوني على فلسطين هي الشغل الشاغل للسودانيين. وكان من نتاج هذا المد العروبي الإسلامي أن تخلى الشعب السوداني، خصوصاً في منطقة الوسط، عن تسامحه الديني وأصبحت قضية الديانة من أهم قضايا الساحة.[97]

وفي عام ١٩٤٨ اجتمعت اللجنة الستينية لمؤتمر الخريجين لمناقشة مسألة "اغتصاب" الأراضـي العربية في فلسطين، وتمخض الاجتماع عن تشـكيل لجنتين إحداهما مالية لجمع التبرعات وإرسـالها لجامعة الدول العربية دعماً للجيوش العربية في

---

93 . **صحيفة الرأي العام**، ١٦ ديسمبر ١٩٤٦. وقد مهر المقال بتوقيع التاجر ورجل الأعمال السوداني المعروف محمد أحمد السلمابي.

94 . نفسه.

95 . نفسه.

95 . نفسه.

96 . نفسه.

97 . ومن ذلك أن قضية فتاة سودانية تنصرت بواسطة الإرسالية الأنجليكانية في أم درمان كانت موضوعاً لغضبة شعبية جارفة ومظاهرات أمها المثقفون وعامة الشـعب كتفاً بكتف. أنظر: محمد خير البدوي، **مرجع سـابق**، ص ص ٩١-٩٢.

فلسطين، والأخرى عسكرية لتجنيد السودانيين وبعثهم إلى مقدمة الجيوش العربية المدافعة عن فلسطين.[98] ولم يكن غريباً أن يكون التجار على رأس اللجنة الأولى ممثلين في شخص التاجر الشيخ حسن هريدي، والشيخ أحمد السيد الفيل.

ويعكس نجاح اللجنة الأولى في جمع أربعة آلاف جنيه، وهو مبلغ ضخم جداً بمقاييس تلك الأيام، خلال ثلاث ساعات فقط،[99] أمران: الأول هو تفشي موجة العداء لليهود، وتجاوب السودانيين مع الحق الفلسطيني، ولكن التجاوب وحده لن يكون كافياً لجمع كل هذا المبلغ. والأمر الثاني أن التجار الوطنيين، وغيرهم من التجار العرب والشوام والمصريين المتضررين من تنامي النفوذ التجاري لليهود، قد تدافعوا للتبرع لهذه اللجنة، يدفعهم موقفهم الذاتي، وربما حماستهم العربية والإسلامية. أما اللجنة العسكرية فقد نجحت في تجنيد ٧,٥٠٠ متطوع "للجهاد" في فلسطين، تم تقسيمهم على ثماني سرايا. ويعكس هذا العدد الكبير سيادة الأيديولوجيا العربية بين السودانيين في تلك الفترة.[100] لم تتدخل الحكومة الإنجليزية لوقف نشاط هذه اللجان، ويبدو أنها كانت تتهيب أي رد فعل سوداني يقوم على أيديولوجيا دينية.[101] وفي ظل هذا الوضع امتدت الأيديولوجيا الجديدة ذات البعدين العربي والإسلامي جاعلة من فلسطين محوراً لها، تغذيها البرجوازية الوطنية وتعبر عنها.

وتجاوبت الأوساط الشعبية مع تطورات الموقف في فلسطين، فأغلقت المحال التجارية في مدينة الأبيض يوم ١١ مايو ١٩٤٦ "إكراماً" للشهداء في فلسطين. وارتفعت النداءات في المساجد السودانية تدعو لنصرة الشعب الفلسطيني، وأبرق المصلون

---

98 . عمر محمد أحمد صديق، **السودان والقضية الفلسطينية**، بحث مقدم لنيل درجة الدبلوم العالي في الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ١٩٨٠، ص ٢٨.

99 . نفسه، ص ص ٢٨– ٢٩.

100. نفسه، ص ٣٣. وقد راجعت ما أوردته **الموسوعة الفلسطينية** عن الجيوش العربية المشاركة في حرب ١٩٤٨ ولم أجد ذكراً لهذه السرايا السودانية، فإما أنها وزعت على الوحدات العسكرية في الجيوش العربية المختلفة وبخاصة الجيش المصري، أو أنها لم تصل إلى فلسطين، أو أنها قوبلت بالتجاهل هناك. للمزيد حول مشاركة الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨ أنظر مدخل "حرب ١٩٤٨" في: **الموسوعة الفلسطينية**، المجلد الثاني **(ج– ش)**، ص ص ١٥٠– ١٦٢.

101 . إن المطّلع على السياسة الإنجليزية في السودان يستطيع أن يقرأ تخوّف الحكومة من الثورات الدينية، خصوصاً وأنها قد ذاقت المرين من الثورة المهدية، وبهذا المنطق نستطيع أن نفهم نوبة الذعر التي أصابت الحكومة عند قيام حركة ود حبوبة في الحلاوين، وما القمع الذي جوبهت به تلك الحركة إلا تعبيراً عن هذا الذعر. للمزيد بخصوص هذا الموضوع أنظر: محمد سعيد القدال، **مرجع سابق**، ص ص ٤٠٩ وما بعدها. أنظر أيضاً تقديم يوسف فضل حسن في: عثمان عوض الكريم محمدين، **عبد القادر ود حبوب والعوامل المؤثرة على شخصيته**، شركة مطابع السودان للعملة، الطبعة الأولي، ٢٠٠٨، ص ص ك– س.

إلى اللجنة العليا لفلسطين باسم "عرب السودان" يؤيدون الحق الفلسطيني ويستنكرون العدوان "اليهودي".[102] وفي هذه الأثناء كانت الألسن اليهودية في السودان تلهج بالدعاء لحاييم وايزمان وبن غوريون.

كان التعاطف مع الفلسطينيين هو الوجه الآخر من العداء لليهود، وقد عمق من هذا التوجه اختيار الحركة الصهيونية لاسم إسرائيل، ذي المحمولات الدلالية الدينية اليهودية، عنواناً لكيانهم الجديد. وانتظم المثقفون في ركب هذا التيار المعادي لليهود تعاطفاً مع الفلسطينيين، فكتبت **مجلة الفجر** منتقدة إعطاء اليهود حقاً في فلسطين على حساب العرب رغم وقوف العرب بجانب الحلفاء في الحرب: "(...) فعلى حساب العرب إذن تقدم المكافأة لليهود نظير مساعدتهم للحلفاء في حرب أقل ما يقال عنها أن العرب لم يشعروا في يوم من الأيام بأنهم خرجوا منها بمغنم (...) وأن الدور الذي لعبه العرب بجانب الحلفاء لا يقاس بما لعبه اليهود (...) بل أن اليهود الذين يأتون إلى فلسطين وقفوا في وجه صفوف الحلفاء إما قهراً من النازي أو حباً فيه".[103]

ولما كانت القصيدة واحدة من أدوات التعبير النضالي في السودان في تلك الفترة، فقد انبرى الشعراء للتعبير عن هذه الأيديولوجيا، فنظم الناصر قريب الله قصيدة بعنوان "فلسطين الجريحة". وبنفس العنوان نظم أحمد محمد صالح: "قل للعروبة أين السلاح.. وكيف الكفاح وفيم الخور".[104] وكتب محمد المهدي المجذوب متعرضاً لوعد بلفور: "وعد بلفور!! أي وعد؟ أبلفور إله خانه اليهود".[105] ويمكن القول إن التعاطف مع فلسطين، وما يقابله من عداء لليهود، أصبح الموقف العام للسودانيين بعامة، والمثقفين على وجه الخصوص، في أواخر الأربعينات. قد أحدث موقف السودانيين قلقاً في أوساط الجالية اليهودية في السودان. وتفاقم الأمر بعد هزيمة الجيوش العربية (١٩٤٨) وتأسيس الكيان الإسرائيلي. وبالمقابل عزز هذا الموقف الدافع الديني للعديد من اليهود بالهجرة إلى أرض الميعاد.

لم يكن للوضع أن يظل على ما هو عليه، فالأحداث المتسارعة زادت من موجة العداء لليهود، وفي عام ١٩٥٢ وصل جمال عبد الناصر إلى سدة الحكم في مصر، ومنذ البداية تبنى الأيديولوجيا العربية ودعا لها، وبدأت أجهزة الإعلام المصرية تبث الدعاية ضد اليهود والأجانب بصورة عامة، ورددت القلوب السودانية صدى هذه الدعاية. وقد شهدت هذه الفترة مداً وطنياً ونشاطاً حزبياً كثيفاً في السودان، اتفق في مجمله مع الحق الفلسطيني، تدفعه أمانيه العربية وسطوته الإسلامية، بل حتى الحركة السودانية للتحرر الوطني، (حستو)، ذات التوجهات اليسارية، اتخذت موقفاً متضامناً مع الشعب الفلسطيني.[106]

---

102 . عمر محمد أحمد صديق، **مرجع سابق**، ص ١٧، نقلاً عن: **صحيفة الرأي العام** بتاريخ ١٤ مايو ١٩٤٦.

103 . مجلة الفجر، ١٦ يونيو ١٩٤٧، المجلد الثاني، ص ٢٩٦.

104 . نفسه، ص ص ٢٦– ٢٧.

105 . نفسه، ص ٢٧.

106 . يقرر رفعت السعيد في هذا الخصوص أن الحركة المصرية للتحرر الوطني (حدتو) ونظيرتها السودانية (حستو)، اتخذتا موقفاً مطابقاً حيال القضية الفلسطينية فحواه تعبئة الرأي العام بضرورة محاربة الجيوش الإنجليزية في مصر والسودان رفضاً للاستعمار في فلسطين. أنظر: رفعت السعيد، **اليسار المصري والقضية الفلسطينية: كراسة وثائق**، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٤، ص ص ٤٥– ٤٦.

وتوّج المد الوطني في السودان بنيل الاستقلال عام ١٩٥٦، وبهذا انكشف الغطاء عن كل أشكال الحماية والتسهيلات التي كانت تجدها الأنشطة اليهودية في السودان. وما هي إلا سبعة أشهر فقط حتى وقع العدوان الثلاثي على مصر.[107]

ورغم أن العلاقات السودانية المصرية لم تكن في أحسن أحوالها في ذلك الوقت، إذ لم تكن مصر راضية عن اختيار السودانيين للاستقلال بدلاً من الوحدة مع مصر،[108] إلا أن السودانيين تضامنوا مع مصر وأرسلوا المجندين والمتطوعين إلى مصر للدفاع عن "الأراضي العربية"، ونشطت حركات المقاطعة لليهود، وحركة جمع التبرعات المالية وسط الاتحادات المهنية والنقابات.[109] وازدادت حماسة السودانيين تجاه أطروحة العروبة والوحدة العربية بعد حرب النكسة (١٩٦٧)، وانعقاد مؤتمر القمة العربية في الخرطوم في ٢٩ أغسطس- ١ سبتمبر من العام نفسه، وهو الاجتماع الشهير بقمة اللاءات الثلاث: "لا للاعتراف بإسرائيل، لا للصلح مع إسرائيل، لا للتفاوض مع إسرائيل".[110]

ألحق التضامن السوداني "العربي"، وموجة العداء التي ذكرناها، ضرراً بالغاً باليهود في السودان. وتعكس مذكرات إلياهو سولومون ملكا هذه الأوضاع، فيذكر أنه اشتكى لرئيس الحكومة السودانية عبد الله خليل، من هجمات الصحف اليومية وحملاتها على اليهود بعد العدوان الثلاثي. كما اشتكى للسيد عبد الرحمن المهدي من الهجوم الذي تشنه صحيفة صوت الأمة.[111] ورغم أن صحيفة صوت الأمة لم تتعرض لليهود بعد هذه الشكوى، إلا أن هجوم بقية الصحف على اليهود أصبح أشد ضراوة.[112] ويبدو أن الأمر قد وصل حد التطرف، وربما توقعت الحكومة حدوث اعتداءات على اليهود في السودان فقررت

---

107 . جعلت حكومة عبد الناصر من إقامة جيش وطني قومي في مصر أحد أهدافها، وأخذت تعيد تنظيم الجيش وتزويده بأحدث الأسلحة وتدريبه على أنجح الأساليب والطرائق القتالية الحديثة. وعقدت صفقات لشراء السلاح مع الاتحاد السوفيتي وبعض الدول الاشتراكية. وتبع ذلك تأميم قناة السويس في ٢٦ يوليو ١٩٥٦. وهكذا اجتمعت لدى هذه الدول الثلاث المبررات الكافية لشن العدوان على مصر. للمزيد حول العدوان الثلاثي على مصر أنظر مدخل "حرب ١٩٥٦" في: **الموسوعة الفلسطينية**، مصدر سابق، ص ص ١٦٣- ١٧٠

108 . كان الرأي العام المصري والحكومة المصرية على السواء لا يقبلان مسألة استقلال السودان عن مصر فحق سيادتها على السودان من المسائل الحساسة في السياسة المصرية، حتى أن مصر رفضت الموافقة على منح السودان استقلاله. أنظر في هذا الخصوص: سير هارولد ماكمايكل، **السودان**، ترجمة محمود صالح عثمان، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، الطبعة الأولي، ٢٠٠٦، الفصل السابع عشر "دور مصر"، ص ص ٢٩١- ٣٠٠.

109 . عمر محمد صديق، مرجع سابق، ص ص ٤٣- ٤٦.

110 . خضر حمد، **مرجع سابق**، ص ٣٣٠.

111 . لم أجد في **مذكرات السيد الإمام عبد الرحمن المهدي** أي صدى لهذ المقابلة.

112 Eli S. Malka, *Ibid*, pp 115- 120.

حمايتهم دون إخطارهم، أو لعلها قررت مراقبتهم، فبدأت عيون الحكومة تتابع تحركات أفراد الجالية اليهودية في الســـودان.[113] ولابد أن هذه الرقابة عمقت من مشـــاعر الضـــيق والاغتراب لدى أفراد هذه الجالية. وإزاء هذه التحولات أضـــطر أفراد الجالية اليهودية لمغادرة الســودان. وقد تأزم الموقف أكثر عندما قررت حكومة عبود ســحب الجنســية الســودانية من عدد من اليهود السودانيين.[114]

مثلما شهدت الفترة من ١٩٦٠ وحتى ١٩٦٩ تنامي المد العربي الإسلامي، فقد شهدت تنامي المد الاشتراكي من جهة أخرى. وقد التقى التياران في العداء لليهود إما بدافع "التضامن الإسلامي العربي"، أو بدافع "التضامن الشعوبي ومحاربة الأذرع الإمبريالية في المنطقة".[115] وكان الوجود اليه ودي في السودان قد أصبح اسمياً في نحو عام ١٩٧٠ قوامه بضع أسر يهودية أغلبها في طور نحو الاندماج الكامل في المجتمع الســوداني. وحتى هذه الأســر عملت على تغيير أســمائها وقبلت بأن تعيش متخفية وراء الجلباب السوداني مثل أسرة مصطفى إسحق إسرائيل التي تغيرت إلى مصطفى إسحق داؤود حتى يتمكن أحد أفراد الأسرة بالالتحاق بالجيش السوداني، وانتمت هذه الأسرة إلى أخوالها البديرية. وأسرة يعقوب داؤود العيني التي تغير اسمها إلى يعقوب داؤود عاني وبذا استطاع ابنهم الالتحاق بالشرطة السودانية، وانتمت إلى أخوالها الجعليين. وقد تسبب الانتماء اليهودي في العديد من المضايقات لهذه الأسر الكريمة منذ الاستقلال وحتى الآن.[116]

وكانت قرارات التأميم العشوائية التي أصدرتها حكومة النميري قاصمة الظهر للجالية اليهودية في السودان،[117] فصّفت أعمالها. وبهذا أســـدل الســـتار عن فترة مزدهرة من تاريخ الأقليات اليهودية في الدياســـبورا. ويبدو أن أثر الجالية اليهودية

---

113 . لاحظ إلياهو سـولومون ملكا أن شـرطياً يقف بصـورة دائمة في ركن منزله في شـارع السـيد عبد الرحمن، وعندما استفسر عن السبب أبلغ بأنه إجراء من أجل حمايته الشخصية. أنظر: مكي أبو قرجة، **مرجع سابق**، ص ٨١.

114 . نفسه، ص ٨١.

115 . أنظر الباب الأول من: الشريف يوسف الهندي، **لوطني وللتاريخ: مذكرات الشهيد الشريف حسين الهندي**، مركز عبد الكريم ميرغني الثقافي، الطبعة الأولي، ٢٠٠٦، ص ص ٧١- ١٤٣.

116 . عكست لي أسرة مصطفي إسحق إسرائيل وأسرة يعقوب داؤود العيني نماذج من هذه المضـايقات التي وصلت حد الفصل من العمل ومطاردة أفراد الأسرة واعتقالهم بصورة متكررة واتهامهم بالعمالة وخيانة الوطن، إضـافة للمضـايقات الساذجة التي تعرض لها أطفال هذه الأسرة في المدارس والشارع العام.

117 . شــملت قرارات المصـــادرة الشــركات اليهودية، والشــركات الأجنبية عموماً، والتي كان اليهود يتمتعون بإدارتها أو العمل فيها. كما شـملت قرارات المصـادرة منازل اليهود في الخرطوم. للمزيد حول تضـرر الجالية اليهودية من قرارات المصــادرة أنظر: Eli S. Malka, *Ibid*.؛ أنظر أيضــاً: مكي أبو قرجة، **اليهود في الســودان**، **مرجع ســابق**؛ أنظر أيضـاً: عادل سـيد أحمد، "يهود السـودان من زمان حتي الآن" سـلسـلة مقالات صـحفية، **صـحيفة الوطن**، ابتداء من تاريخ ٢٩ يونيو ٢٠٠٨.

الاقتصادي في السودان كان كبيراً كرأس مال مستثمر لا منتمٍ، إذ أصدرت الحكومة السودانية، بعد خمسة أعوام فقط، نداءً أشبه بالتوسل لرأس المال اليهودي للعودة إلى السودان.[118] لكن هيهات أن يغامر رأس المال اليهودي بمثل هذه المخاطرة مرة أخرى.

بمثابة خاتمة: صورة اليهودي في الذهن السوداني

ننظر هنا في الذهن السوداني بتغليب البعدين العربي والإسلامي عليه باعتبارهما البعدين اللذين تشكلت عبرهما صورة اليهودي فيه. ويستمد هذا الجزء مضمونه "الصورة" من مدخلين: الأول هو الواقع التاريخي والموضوعي الذي تطورت فيه الشخصية اليهودية. والمدخل الثاني هو الصورة الذهنية التي تشكلت في الوجدان الذاتي "للأنا" السوداني حول اليهودي "كآخر". المدخل الأول، بما هو مصدر، هو رافد مهم من الروافد التي غذت المدخل الثاني كتجلٍ تعبيري عن ذلك الواقع.

ولعل من نافلة القول أن نذكر هنا أن الصورة الذهنية للآخر هي ليست بالضرورة صادقة أو نهائية، فهي غير صادقة لأنها ليست هي "الآخر" وإنما هي مقابل أو معارض "الأنا" باعتبارها الشرط الرئيسي لوجود "الآخر"،[119] وبالتالي "فالآخر" يتراوح وفقاً لذات "الأنا" الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما أن صورة "الآخر" تنحو نهجاً اختزالياً في حسم مجموع كبير من المعارف حول الآخر في سمة واحدة لتسهيل إمكانية التعايش معه،[120] مما يلغي، بالضرورة، عدداً آخر من الصفات التي تكون من صميم شخصية "الآخر". وصورة الآخر ليست نهائية لأنها تتغذى باستمرار من الأحداث اليومية والراهنة ووسائل الإعلام المختلفة، والخبرات المباشرة الناتجة عن الاحتكاك بالآخر.[121]

مع الدور الكبير الذي لعبه العامل الاقتصادي في تشكيل صورة اليهودي في الذهن السوداني، فإن هناك عوامل أخرى أثرت على مدخلات إدراك صورة اليهودي في الذهن السوداني أهمها الخبرة المباشرة في التعامل مع اليهود وهي خبرة لا تخلو من الأبعاد الأسطورية، والسيرورة التاريخية بتعارضاتها وتلاقيها بين اليهودي والعربي، بالإضافة للنص الديني القرآني، والثقافة الشعبية، والتعليم الرسمي، ووسائل الإعلام المختلفة، والمنتج الفني والأدبي.[122]

وحتى نسير في الطريق الصحيح لمعرفة مدخلات اليهودي في الذهن العربي بكل تعقيداتها سابقة الذكر فإن علينا أن نعود قليلاً إلى أسطورة التأسيس المشتركة أو "التكوين الأول"، كما يسميه ريجين عزريّه،[123] للعلاقات الرابطة بين العربي

---

118 . أنظر: صلاح محمد أحمد، **موضوع عن اليهود في السودان، مرجع سابق.**

119 . جان فارو، "الآخر بما هو اختراع تاريخي"، في: الطاهر لبيب (تحرير)، **صورة الآخر: العربي ناظراً ومنظوراً إليه،** مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولي، ١٩٩٩، ص ص ٤٥– ٥١.

120 . دلال البزري: "الآخر: المفارقة الضرورية"، المرجع السابق، ص ص ٩٩– ١١٠.

121 . ريجين عزريَّه، "اليهود والعرب: صورة الآخر وآثار المرآة"، المرجع السابق، ص ص ٤٩٧– ٥٠٨.

122 . عبد الباسط عبد المعطي، "صورة الإسرائيلي لدي المصري بين ثقافة الهامش والدراما التلفزيونية"، **المرجع السابق،** ص ص ٣٥٧– ٣٧٢.

123 . ريجين عزريّه، **مرجع سابق،** ص ص ٤٩٧– ٥٠٨.

واليهودي. وأول ما يظهر في هذا "التكوين الأول" هو الازدواج التقابلي عربي/ يهودي، فنجد منذ البداية الرابطة الأخوية إسماعيل/ إسحق. فاليهود والعرب بهذا المعنى ينحدرون من أب واحد هو إبراهيم الخليل، لكنهم أيضاً ينحدرون من أمين متضارتين هاجر/ سارة، وهما بشكل أو بآخر إنعكاس كل منهما للآخر عربي/ عبري، وعلينا أن نلاحظ هنا تغير مواضع الحروف، وتخبرنا الأسطورة أن العبرانيين سموا بهذا الاسم لأنهم هم الذين "عبروا" نهر الفرات مع إبراهيم.[124] وتختلف الأمتان العربية والعبرية حول هوية الذبيح هل هو إسماعيل أم إسحق، فبينما يوحي النص القرآني بأن الذبيح هو إسماعيل جاءت التوراة تقطع الشك لأتباعها بأن الذبيح هو إسحق: "خذ ابنك وحيدك، إسحق الذي تحبه، وانطلق إلى أرض المُريا وقدمه محرقة على أحد الجبال الذي أهديك إليه".[125] وتأخذ قصة الذبيح أهمية محورية في كل من الديانتين بما هي صراع حول الشرعية "ابنك وحيدك"، فهي واحدة من أركان الحج في الدين الإسلامي، وهي أساس وراثة النبوة في الدين اليهودي. إذاً فنحن هنا أمام إلغاء أحد الطرفين أحدهما للآخر، فبينما يشدهما النسب المشترك من جهة الأب، يباعد بينهما النسب من جهة الأم ويقيم بينهما نزاعاً حول الشرعية، ويقضي بصياغة صورة عن الآخر في منتهى الضدية.

وقد أدخلت خبرة السودانيين باليهود، "كغرباء" زاحموهم في أرزاقهم على الرغم من أن التجار اليهود كانوا عادة ما يبتدرون ضروباً جديدة من التجارة لم يمتهنها تجار السودان، ولعل هذه الصورة من المدخلات التي صدرت للذهن السودان من الخبرة الإنسانية العامة حول العالم عن اليهود. ومع اعتماد حكومة العهد الثنائي على اليهود كوسطاء، صوّر اليهود كمستغلين جشعين، وكمعاونين للاستعمار وشركاء في نهب خيرات البلاد.

أقام السودانيون تطابقاً بين اليهودي والإسرائيلي وفي بعض الأحيان بين اليهودي والصهيوني والماسوني؛ ومن ثم فقد جعلوا من الديني والسياسي مترادفين متلازمين يستخدم أحدهما للدلالة على الآخر، ومما عزز هذا التطابق اختيار الكيان الإسرائيلي لاسم إسرائيل كتعبير عن دولتهم الجديدة (١٩٤٨)، فهو اختيار جاء محملاً بدلالات دينية وسياسية وعنصرية، الأمر الذي يستدعي مباشرة المرجعية الدينية ومتلازماتها من ربط بين اليهود وبين إسرائيل حيث يطلق القرآن تعبير بني إسرائيل للدلالة على اليهود، وأيضاً صفات اليهود في القرآن الكريم والتي تمركزت حول خيانتهم للعهود ومساومتهم في كل الأمور حتي المقدس منها. وقد حرص علماء الدين الإسلامي على تأكيد هذا البعد الديني واستدعائه في تأسيس صورة اليهودي في خطب المساجد والمنابر وفي تناولهم لقضية فلسطين وأزمات الشرق الأوسط.

من صفات التنميط الاجتماعي للشخصية اليهودية في السودان تبرز سمات: خائن للعهود، وهي صورة يعززها النص القرآني،[126] والبرود العاطفي ولعل أساسه النظرة المادية للأشياء الناتجة عن النزوع نحو الفردانية. والافتقاد للإحساس بالجذرية

---

124 . على حسن الخربوطلي، **المرجع السابق**، ص ١١.

125 . **العهد القديم**، سفر التكوين، ٢٢: ٢.

126 . هناك عدد من الآيات القرآنية حول هذا المعنى منها على سبيل المثال قوله تعالي: "ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا

وهي تعكس الواقع التاريخي الذي نشـــأ فيه اليهود وهي ســـمة صـــاحبت اليهود في كيانهم الجديد وجعلت من مســـألة البحث التاريخي والآثاري عن أدلة تثبت الوجود التاريخي لليهود في فلســطين شــغل اليهود الشــاغل ســواء بالنســبة للمؤســســات أو الأفراد،[127] والحســاســية المفرطة تجاه النقد وهي ناتجة من افتقار اليهودي الخفي للثقة في النفس، والخيانة، والجشــع، والبخل، والمراوغة،[128] والخبث.[129] كما نجد عدداً من الصـفات السـلبية التي جعلت هدفها نفسـية الشـخصـية اليهودية مثل: الانطوائية، التشـكك، الشـعور بالدونية، اللامبالاة، الإحسـاس بالفشـل، الكآبة، التشـاؤم، الحاجة للمديح والإطراء، خشـونة المظهر، انفعالية الأعماق.[130]

وحرصـت ثقافة العامة على تفكيك الجسد وتجسيم أعضـائه وتصـويرها على نمط كاريكتوري بشكل يحقق الفرضـيات السابقة، فالرجل الإسرائيلي هو غالباً أصلع، له لحية تلتقي مع الشارب، أنفه بارز، أذنه طويلة وكبيرة، يميل إلى البدانة، يختار الألوان الداكنة، يخفض صـوته ويوظف أنفه كأحد مخارج الكلام. وهكذا فنحن هنا أمام شـخص مريب فاللحية والشـارب تخفي ملامح الوجه وانفعالاته، واللون الداكن للتواري وعدم الظهور الحاد، والصـوت المنخفض يعطي انطباعاً بالمسـكنة.[131] ويختزل صـلاح محمد أحمد الملامح الجسـدية لليهود في الأنف الطويل المعكوف، فيقول في معرض روايته عن زيارته للكنيس اليهودي في الخرطوم عام ١٩٧٧: "(..) فوجدت بداخله شـــخصـــاً يدعي إبراهيم باخوس أو باغوص وهو في ملامحه نموذج لليهودي بأنفه الطويل المعكوف (..)".[132] ونلاحظ أن صـورة اليهودي ذي الأنف المعكوف هي الغالبة حول تصـور السـودانيين للنمط الجسـماني لليهود، وقد عملت وسـائل الإعلام المختلفة في السـودان، الدراما المصـرية المنقولة في تلفزيون السـودان، منها على وجه الخصوص مثل مسلسل رأفت الهجان الذي وجد قبولاً واسعاً في السودان، على تأكيد هذه السمة.

وكان سكان مدينة الخرطوم يتداولون فيما بينهم عدداً من حكايات الخوف بطلها كائن شرير "مقيت" يظهر في الأماكن المهجورة والنجسـة مثيراً للرعب لدى الإنسـان العادي. أطلقوا عليه اسـم "أبو كدوس"، يتفق وصـفه الخارجي مع الوصـف العام لليهود فهو يرتدي الملابس الداكنة، والقبعة الطويلة، والبذلة الطويلة التي تصـــل حد الركبة، و"ينخنخ"، أي يخرج صـــوته من

تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل في ســـبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليل منهم والله عليم بالظالمين". **القرآن الكريم**، سورة البقرة، آية ٢٤٦.

127 . رشاد عبد الله الشامي، **الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق**، ص ص ١٠٣– ١٤٢.

128 .عبد الباسط عبد المعطي، **صورة الإسرائيلي في مصرمرجع سابق**، ص ٨٩.

129 . زينب الخضيري، "الفقر في كتاب **الفلاكة والمفلكون**"، في: محمود الكردي (تحرير)، **الفقر في مصر**، وقائع الندوة السنوية السادسة لقسم الاجتماع بكلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٩٩، ص ص ٦٧– ٧٤.

130 . عبد الباسط عبد المعطي، "صورة الإسرائيلي لدى المصري بين ثقافة الهامش والدراما التلفزيونية"، نقلاً عن: قدري حنفي، **الإسرائيليون: من هم؟**، الباب الثالث، ص ٣٩١.

131 . عبد الباسط عبد المعطي، **صورة الإسرائيلي في مصر، مرجع سابق**، ص ص ٢٨– ٣٣.

132 . صلاح محمد أحمد، **الجالية اليهودية في السودان، مرجع سابق**، ص ٩.

الأنف مما يجعل حديثه مبهماً وغير واضح، وهي صورة تقارب وتحاكي مخارج الحروف العبرية، هو يمسك بين شفتيه بالغليون "الكدوس"؛ وهذه المواصفات تجعل "أبو كدوس" بزيه وغليونه شخصية أوربية غير سودانية.[133] ومن أهم صفات "أبو كدوس" غير المرئية أنه يمثل الحي/ الميت، ويشرب دم ضحيته، وهنا تلتقي حكايات "أبو كدوس" مع حكايات دراكولا مصاص الدماء في المجتمع الأوربي، وتفيد بعض الدراسات أن شخصية دراكولا هي تجسيد للمواصفات الذهنية لليهودي في أوربا ولا أستبعد أن تكون صورة اليهودي في أوربا قد غذّت تصور السودانيين لليهود، فقد كان الأوربيون ينظرون إلى اليهود نظرة إزدراء وكراهية، وكان اليهود ينعتون بالخيانة. وقد ساعد الجيتو اليهود على تغذية هذه النظرة بمنعه للاتصال بين اليهود والشعوب التي عاشوا بينها، فانتشرت الشائعات التي تروج لسحر اليهود وشيطنتهم ووحشيتهم وغدرهم.[134] كما أن تفوق اليهود في العلوم الطبية والجراحية والكيمياء عزز الشائعات حول أن اليهود سحرة وأنهم أخوان الشيطان.[135] ولعل بعض الأجانب الذين عملوا في السودان حملوا معهم هذه الأفكار، فمثلت الرافد الخارجي الذي تغذت منه صورة اليهودي في الذهن السوداني الذي كان مهيأً لمثل هذه الأفكار بخلفيته الدينية والقرآنية.

من أكثر السمات الراسخة في الذهن السوداني عن الشخصية اليهودية، والتي يبدو أنها تغذت من الوضع الاقتصادي لليهود، تبرز صفات: الجشع، وحب المال، وكنزه، والبخل الشديد، والأنانية، والمرابأة، وتجاوز العواطف الإنسانية بسبب البخل والمادية. واليهودي في نفس الوقت ذكي، حسن التدبير، ناجع الحيلة، ويتداول بعض السودانيين في هذا الخصوص حديثاً موضوعاً للرسول صلى الله عليه وسلم يدعون أنه جرى إبَّان فتح خيبر حين قاتل الصحابة اليهود، فأشار الرسول على أصحابه بوقف القتال قائلاً: "خلوا باقي النصاره للبصاره".[136] ورغم عدم صحة هذا الحديث إلا أنه يعطي فكرة واضحة عن الاعتراف

---

133 . قيصر موسى الزين، **الحركة التاريخية: المدينة والدين في أفريقيا الشرقية**، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ، كلية الآداب، جامعة الخرطوم، ١٩٩١، ص ٧٣. وقد ذكر أنه جمع عدداً من الروايات المتداولة عن "أبو كدوس" إبّان جمعه الميداني لإعداد أطروحته، ويفسر هذه الروايات بأنها أحد أشكال المقاومة والتعبير الشعبي عن رفض الاستعمار.

134 . إسماعيل راجي الفاروقي، **مرجع سابق**، ص ٢٥. وفيما يخص مسألة شرب دماء الضحية فقد شاع في المجتمع الأوربي ما يعرف بـــ"تهمة الدم"، ومفادها أن اليهود بأنهم يقتلون صبياً مسيحياً في عيد الفصح سخرية واستهزاءً من صلب المسيح، وتطور الاتهام إلى الاعتقاد بأن اليهود يستخدمون دماء لأغراض كثيرة أخرى منها الدينية ومنها الطبية. للمزيد حول تهمة الدم يمكن الرجوع إلي: عبد الوهاب المسيري، **في الخطاب والمصطلح الصهيوني: دراسة نظرية وتطبيقية**، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الصانية، ٢٠٠٥، ص ص ١٩٧– ٢٠٠.

135 . نفسه، ص ٢٦.

136 . والنصارى عند السودانيين هم كل الأجانب من أوربيين وشوام وغيرهم من ذوي البشرة البيضاء أو الصفراء بغض النظر عن دينهم.

الجمعي بشـــأن التفوق الأوربي، واليهودي، ولعله محاولة من "الأنا" الســودانية لتبرير عجزها في مقابل قدرة "الآخر" وبراعته في مناشط الحياة "الدنيا" على اعتبار أنه ليس لهذا "الآخر" نصيب في الحياة "الأخرى".

ويسود في السودان اعتقاد مؤداه أن الله قد منح اليهود قدراً من الحظ أكثر من غيرهم، وهو ما يتكشف من مناسبة واستخدام ما يجري مجري المثل الشعبي[141] "حظ يهود" الذي يقال لكل من وهب قدراً من الحظ، فهل لهذا الاعتقاد علاقة بمسألة "شعب الله المختار" ورسوخها في الذهن الشعبي السوداني؟ أم هي أصداء للقصص القرآني حول شعب إسرائيل ومعاصيهم وغفران الله لهم؟

---

141 . ما يجري مجرى المثل هو مصـطلح فولكلوري يشـير إلى العبارات المألوفة والنعوت الجاهزة التي يتداولها المجتمع في مناسبات معينة.